الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
- البويرة -
كلية الآداب واللغات

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
Tasdawit Akli Muḥend Ulḥağ - Tubirett -
Faculté des Lettres et des Langues

قسم: اللغة والأدب العربي
التخصص: علوم اللسان وتحليل الخطاب

الذاتية في الشعر الجاهلي

تناول تداولي لمعلقة امرئ القيس

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير

إعداد الطالبة:
كهينة مكراب

إشراف الدكتور:
بوعلي كحال

لجنة المناقشة:	**الرتبة**	**مكان العمل**	الصفة.
1 **أ. د/ مفتاح بن عروس**	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر	**رئيسا.**
2 **د/ بوعلي كحال**	أستاذ محاضر –أ-	جامعة البويرة	**مشرفاً ومقرراً.**
3 **د/ طيبي عيسى**	أستاذ محاضر - ب-	جامعة البويرة	**عضوا مناقشا.**
4 **د.ة/ نعيمة بن علية**	أستاذة محاضرة - أ -	جامعة البويرة	**عضوا مناقشا.**
5 **د/ مصطفى ولد يوسف**	أستاذ محاضر - ب-	جامعة البويرة	**عضوا مناقشا.**

السنة الجامعية: 2015/2014

إهداء

إلى أعز الناس والدي الكريمين

حفظهما الله

وإلى من تحمل معي مشقة هذا

العمل حسين

مــــــــقدّمـــــة

تهتم التداولية باللّغة باعتبارها الوسيلة الأساسية في العملية التواصلية، كما تجسد تفاعل الإنسان مع غيره، فهي ترتبط في التحليل التداولي للخطاب بمقاصد المتكلم، وظروفه الاجتماعية، وعلاقة كل من المتكلم والمتلقي بالعملية الخطابية، كما ترتبط كذلك بالسياق الذي يكشف عن أهداف ومقصدية المتكلم في الخطاب، كما أعطت التداولية أهمية كبيرة لتحليل الخطاب العادي اليومي باعتباره الأقرب لتجسيد إجراءات التحليل التداولي.

وقد جاء الشعر الجاهلي ليعبّر بطريقة عفوية عن شخصية الشاعر وعن البيئة المحيطة به مستعملا في ذلك لغة عربية فصيحة تتضمن أدوات التعبير المباشر وغير المباشر، وقد حفل هذا الشعر بحقائق مهمة ودقيقة عن المجتمع الجاهلي وعن الإطار الزماني، ماحدا بالقدماء والمحدثين إلى اعتباره مصدرا تاريخيا ولغويا أساسيا. ومن هنا نكشف عن علاقة هذا الشعر بالحقيقة من المنظور التداولي وهل أن هذا الشعر جاء ليعبّر عما يقصده الشاعر فعلا؟ وإلى أي مدى يمكن استغلال إجراءات المنهج التداولي في إعادة قراءة التراث العربي؟ وما موقع الذاتية في الخطاب الشعري الجاهلي؟.

هذه التساؤلات وغيرها دفعتنا إلى التركيز على محور الذاتية في تحليل معلقة امرئ القيس، وذلك بتتبع الآثار اللّسانية للذاتية في هذه المعلقة والكشف عن بعض المصطلحات التداولية وكيفية اشتغالها داخل هذا الخطاب على غرار المرجعية، السياق، فكل هذه المصطلحات تلعب دورا بارزا في تحديد طبيعة ووظيفة التداولية في المعلقة, والذاتية تعتبر أحد مرتكزات التحليل التداولي للخطاب، وتقوم على فكرة استعمال المتكلم لوحدات لغوية تكشف عن هويته وشخصيته التي تفهم وتعرف من خلال السياق الذي يعد عنصرا مهما في هذه الدراسة، كما تجسد الذاتية مجموعة الآليات التي تتطابق مع بعض الوحدات ذات الحقيقة اللّغوية ببعض الوحدات ذات الحقيقة غير اللّغوية، ذلك أن الوحدات ذات الحقيقة اللّغوية تستلزم الاهتمام ببعض

العناصر المكوّنة لحال الحديث على غرار الضمائر، الدور الذي يؤديه فاعلوا الخطاب، والحالة الزمانية والمكانية للمتكلم والمتلقي.

ولدراسة هذا الموضوع من وجهة التحليل التداولي للخطاب يجعل من الضروري تقسيم بحثنا وفق منهجية محددة تتمثل في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة ثم قائمة المصادر والمراجع المعتمدة.

وابتدأنا البحث بتمهيد نفصل فيه الجذور التاريخية لنشأة التداولية أي بداياتها الفلسفية إلى بروزها كاتجاه لساني مستقل في الدراسات اللّغوية المعاصرة، كما تناولنا أهم مصطلحات التداولية شائعة الاستعمال.

وجاء الفصل الأول نظريا يحمل عنوان "تحديد المفاهيم" تناولنا فيه التعريف بالمفاهيم الأساسية في البحث، وكان في ثلاث مباحث، تطرقنا في المبحث الأول إلى تعريف التداولية في الاصطلاح، وكذا علاقتها بالعلوم الأخرى على غرار علاقتها باللسانيات، علم الدلالة، البلاغة ... وغيرها، أما المبحث الثاني تناولنا فيه الذاتية، تعريفها، أهميتها في التحليل التداولي للخطاب من خلال عرض أهم عناصرها وأنواعها التي قسمناها إلى قسمين, يتمثل القسم الأول في الإشاريات التي تقوم على الكشف عن الذاتية في اللّغة، والتي تساعد كذلك على امتلاك اللّغة واكتساب السلطة بواسطتها والتي قسمناها أيضا إلى عناصر وهي الضمائر بكل أنواعها, تناولناها عند العرب وعند الغرب، ثم عرضنا لأسماء الإشارة وأسماء الزمان والمكان باعتبارها عناصر تنتمي إلى السياق الوجودي، كذلك ألفاظ القرابة الأسرية، أما القسم الثاني يتمثل في جميع الأحكام الوصفية والقيمية التي تشير كذلك إلى الذاتية في اللّغة من خلال ما يصدره المتكلم من أحكام ممثلة في صورة لسانية بلاغية.

وفي المبحث الثالث تناولنا مفهوم الشعر الجاهلي وخصائصه، والذي قسمناه كذلك إلى ثلاثة أقسام يتمثل القسم الأول في السياق التاريخي والاجتماعي للعصر الجاهلي، أما القسم الثاني فيتمثل في أغراض الشعر الجاهلي وأهم خصائصه اللّفظية والمعنوية أما القسم الأخير فعالجنا فيه ظاهرة المعلقات.

أما بالنسبة للفصل الثاني فكان تطبيقيا تعرضنا فيه إلى التحليل التداولي في معلقة امرئ القيس، فتناولنا فيه نبذة تاريخية عن حياة الشاعر امرئ القيس، كذلك التعريف بالمعلقة باعتبارها أفضل تراث أدبي ورثه العرب من شعر الجاهلية، كما تناولنا أيضا ظروف نظم المعلقة أي تطرقنا إلى مناسبة نظم القصيدة من زاوية علاقتها بشخصية الشاعر وبوضعه إزاء قبيلته وظروف حياته التي لها دور في إبراز ذاتيته بمعنى استغلاله لظروف إلقاء المعلقة للتعبير عن قصده على اختلاف سياقاته لتحقيق الأثر في المتلقي، ومدى امتلاكه اللغة أمام المتخاطبين، ومدى إعطائهم الكلمة للتفاعل معه، أي مدى تفاعلهم معه في الخطاب على اعتبار أن المعلقة نظمت ليعبّر فيها في أغلب أبياتها عن تغزله بحبيبته "عنيزة"، ووصف حالته بعد رحيل أحبابه وكذا بكائه على الديار المهجورة، وهذا ما يجعلنا ننطلق من أن الشاعر قام بسرد مغامراته العاطفية, وكذا اليومية وكيفية تفاعله وتواصله مع مخاطبيه من خلال استعماله لجملة من الوسائل اللّغوية المتمثلة في الإشاريات الشخصية حيث تناولنا فيها كيفية توظيفه للضمائر سواء الحضور أو الغياب من خلاله مجموعة من الأمثلة، وخصائص استعمالها في حالتي الاتصال والانفصال، ثم الإشاريات الزمانية التي تبين رؤية الشاعر الشخصية للزمن الذي يفهم من خلال السياق وبالتالي فهو يتجاوز الزمن الكوني، بعدها الإشاريات المكانية التي تمثلت في تسميات الأماكن التي تمثل أهمية كبيرة في حياة الشاعر التي نفهم معناها كذلك من خلال ربطها بالسياق، إضافة إلى أسماء الإشارة وألفاظ القرابة، كما تناولنا في هذا الفصل كذلك الأحكام ذات القيم الوصفية والقيمية وذلك من خلال ظاهرة الوصف وكذا جميع الصور البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، حيث تقوم على تشخيص الذوات، وتحقيق العملية التفاعلية، فإطلاق حكم وصفي أو قيمي يشير بشكل غير مباشر إلى استعمال المتكلم للذاتية.

وفي الخاتمة حاولنا أن نصوغ جملة من النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة، وذلك من خلال استثمار محور الذاتية باعتباره نتاج الاتجاه التداولي في دراسة الشعر الجاهلي وبالخصوص معلقة أمرئ القيس لما لها من خصائص ومميزات وحضور قوي ومهم للذاتية، كما تتضمن الإجابة عن الإشكالية المطروحة في مقدمة هذا البحث التي تم تحليلها في المتن لتصاغ كنتيجة في الخاتمة.

أما فيما يخص المنهج فقد اخترنا المنهج التداولي، إذ أخذنا على عاتقنا الاستناد إلى الأدوات الإجرائية للتحليل التداولي للخطاب، وذلك بالرجوع إلى المصادر والمراجع الأساسية على غرار أعمال (أوريكيوني Oreecchioni) و(بنفنيست Beveniste) و(مانغونو Maingueneau)، (سورل Searl)، حيث يعد هذا المنهج تصنيفا إجرائيا في الدراسات اللّغوية المعاصرة، يتجاوز المستوى الدلالي، ليبحث في علاقة العلامات بمستعمليها وعلاقتها بالسياق الذي وردت فيه من خلال دراسة الخطاب في سياقات معينة، ومعرفة أثر السياق على لغة الخطاب عند إنتاجه مع الاهتمام بعناصر هذا السياق التي تتمثل بالأساس في العلاقة بين منتجي الخطاب، مقاصد المتكلم وكذا ظروف المكان والزمان، ومدى حضور المتلقي في ذهن المتكلم، والتداولية تهدف إلى الإلمام بجميع عناصر الخطاب دون إهمال أي عنصر فهي تعطي أهمية قصوى لجميع الظروف المحيطة بالخطاب.

لقد واجهتنا صعوبات تمثلت في كيفية التعامل تطبيقيا مع طبيعة الموضوع، والمنهج المختار للدراسة كون مفهوم الذاتية يهتم بالخطاب الحي العادي بينتما المدونة المدروسة تنتمي إلى الأدب المكتوب، كما واجهتنا صعوبة نقص المراجع التي تناولت موضوع الذاتية من الجانب التداولي, ولتذليل هذه الصعوبات أعانتنا بعض المصادر والمراجع المتخصصة –نذكر على سبيل المثال لا الحصر- الذاتية في اللّغة لكاربرات أوريكيوني، إستراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية- لعبد الهادي بن ظافر الشهري، مشكلات اللّسانيات العامة لإميل بنفنيست.

وأخيرا لا يسعني إلا التقدم بالشكر الجزيل للأستاذ المشرف بوعلي كحال الذي لم يتوان عن تذليل الصعوبات، ولتحمله مضنة الإشراف على هذا العمل والله ولي التوفيق.

تمهيد

نشأة التداولية:

تعتبر التداولية من المناهج الحديثة التي اهتمت واعتنت بتحليل الكلام وتستند في كثير من مفاهيمها وأساليبها إلى اللّسانيات، وكانت ارهاصاتها الأولى ذات اتجاه فلسفي حيث اهتم الفلاسفة منذ القدم بقضية المعنى أو الدلالة، فالمنطق عندهم مثلا يهدف إلى الإقناع وإلى تقديم الحجج والبراهين التي تثبت الأشياء وتربطها ببعضها البعض، فهذه الأدلة تسمح بربط الكلمة بمدلولها، فنظرية العبارة التي دعى إليها " لايبنتز" تمكننا من التحدث عن الأشياء فيما بينها باعتبار حيثيات الكم والشدّة والنوع، فالإنسان حسب الفلاسفة مضطر إلى استخدام نظام من العلامات والأدلة لتمثيل الواقع والأشياء التي تحيط به، وذلك نظرا لتعقيد العالم فهو محتاج إلى اللّغة وإلى استعمالها ليعبر عن حاجاته فاللّغات هي أفضل مرآة للفكر الذي تطور في أوروبا وتداخلت حقوله المعرفية، ومن هنا فإن الفضل يعود إلى الفيلسوف الأمريكي شارل سندرس بيرس C.S.Perce في استخدام مصطلح التداولية في الثقافة الغربية، حيث أحدث تطورا كبيرا في المجالين الفلسفي واللّساني، وقد انطلق من فكرة استحداثه لهذا المصطلح من مفاهيم فلسفية بحتة بمعنى أن التداولية تطلق على مجموعة من المعارف والفلسفات التي ترى أن صحة الفكرة تعتمد على ما تؤدي إليه من نتائج عملية ناجحة، وعليه يمكن اعتبار ما جاء به بيرس الأسس الأولى للتحليل التداولي للخطاب.[1]

وينطلق المنهج التداولي من فكرة الإتصال الذي يعتبر من المحاور الأساسية في تحليل الخطاب، فبيرس يرى أن الإتصال لا يمكنه أن يتحقق إلا من خلال التفكير الذي نعرفه من خلال العلامات، فكل علامة تحيل إلى أخرى، والفكر يحيل إلى فكر آخر الذي يؤول إلى سياق مستمر وغير محدود، وبالتالي فالخطاب يفهم في إطار التواصل، أما الفيلسوف الأمريكي "شارل موريس" Charl Mouriss يحدد عدة اختصاصات تتناول اللّغة من جانب الصرف والدلالة، أما التداولية

---

[1]- Osawald Ducot et Jean Marie Schaffer, Nouveau dictionnaire en cyclopedique de sciences de langage, Seuil, Paris, France,1999.p.214.

عنده فهي تتناول العلاقة بين العلامة ومستعملي هذه العلامة وذلك بالرجوع إلى ظروف إنتاج الخطاب أو ما يعرف بسياق النص اللّغوي والخارج اللّغوي، فالمنهج التداولي بهذا يهدف إلى انتاج المعنى في اطار العلامات.

رغم مساهمة كل من بيرس وموريس في نشأة البحث التداولي واهتمامهم بدراسة اللّغة، إلاّ أنّ هناك من الدراسين من يرى أن الجذور الفلسفية لنشأة التحليل التداولي لا تعود إلى هؤلاء الفلاسفة فحسب وإنما كان هناك منبع فلسفي أسبق يعرف بالفلسفة التحليلية لعب دورا بارزا في تكوين هذا التوجه اللّساني الجديد، ونشأت الفلسفة التحليلية على يد الفيلسوف الألماني غوتلوب فريجه (Gottlob Frege) بكتابه أسس علم الحساب[1]، وهي فلسفة لغوية ظهرت في مقابل المدرسة الشكلية، تقوم على دراسة اللّغة وجعلها الهدف الأساسي للبحث الفلسفي لذلك عرفت هذه المدرسة بأنها مدرسة معاصرة تتخذ من دراسة اللّغة موضوعا لها، ومن أهم التحليلات اللّغوية التي أجراها فريجه على بعض العبارات اللّغوية «تمييزه بين مقولتين لغويتين تتباينان مفهوميا ووظيفيا وهما: اسم العلم والاسم المحمول أما اسم العلم فإنه يشير إلى شيء فرد معين وهو عاجز تماما عن استخدامه كمحمول، بل إن الاسم المحمول يتميز عن اسم العلم في أن الوظيفة الأساسية له هي دلالته على تصّور أي يقوم بمهمة التصّور»[2]، كما ميّز فريجه بين المعنى ومرجعه، فمعنى اللّفظ لا يعادل مرجعه، فاسم العلم يؤدي معنا مستقلا، والمحمول يحتاج إلى اسم العلم ليعطيه معنى.

واقتفى الفيلسوف النمساوي لودفيغ فتجنشتاين (Wittgenstein) أثر فريجه، وأسس اتجاها فلسفيا جديدا سماه: فلسفة اللّغة العادية، حيث تأثر هو كذلك بالفلسفة والمنطق «وقد حاول الإسهام في حقل اللّغة وايجاد لغة مثالية تتطابق والفكر الفلسفي، لكنه سرعان ما عدّل عن ذلك واتجه إلى دراسة اللّغة العادية»[3]، ويرى فتجنشتاين أن المعنى ليس ثابتا ولا محدودا، ودعى إلى تفادي البحث في المعنى المنطقي الصارم.

1- حافظ اسماعلي علوي، التداوليات علم استعمال اللّغة، عالم الكتب الحديث، ط1، اربد، الأردن 2011 ص33.
2- المرجع نفسه، ص34.
3- محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، (د ط) ، مصر 2002 ص42.

وجاء بفكرة ألعاب اللّغة في كتابه "بحث في الفلسفة والمنطق"، وتتخلص هذه الفكرة في أن «الأفعال التي نتلفظها، ترتبط بأشكال الحياة والممارسات التي نحياها، أي ينحصر فيما يباح للمتكلمين في اطار العلاقة بينهم وبين عباراتهم»[1]، ويوضح أنه من المهم أن نأخذ بعين الاعتبار سياق الكلام إذا تعلق الأمر بفهم دلالة التعبير اللّغوي. لقد كانت مساهمة هذا الفيلسوف فعالة في الحقل التداولي، حيث جعل الاستعمال أساس حياة اللّغة، والتواصل هدفها، إلى جانب هذه المحاولات قامت محاولات أخرى ومجهودات كثيرة أمثال (غرايس Gric)، (كارناب Carnap)، (راسل Russel)، (هوسرل Hussrel)، و (دونلون Donnelon). هذا عن الجذور الفلسفية لنشأة التحليل التداولي للخطاب وبالرغم من كل هذه المحاولات والمجهودات، إلاّ أن البحث في مجال التداولية لم يتطوّر ولم ينضج إلاّ بمجيء الفيلسوف (جون أوستن John Austin)، الذي أصدر سنة 1962 كتابه المعروف How to do things with words[2] حلل فيه ظاهرة أفعال الكلام، حيث ساوى بين بنية اللّغة وبنية الفكر، واللّغة في مفهومه «تتجاوز وظيفة الإتصال إلى وظيفة التأثير، وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية».[3]

وتتلخص فكرة أوستن في أمرين:

- رفضه لثنائية جداول الحقيقة (الصدق -والكذب).
- اقراره بأن كل قول عبارة عن فعل.

واللّغة في مفهومه تؤدّي وظيفة تأثيرية أكثر منها تواصلية، فهي ليست مجرّد أداة للتواصل فحسب وإنما هي وسيلة لإحداث التأثير والتأثر بين طرفي عملية التواصل، كما يرى أنّ دلالة الجملة في اللّغة العادية ليست بالضرورة إخبارا، وليست مقيدة بأن تحيل إلى الواقع فتحتمل الصدق أو الكذب، كما أنّها تقاس في الدرس التداولي بمدى الإخفاق أو التوفيق[4]، والأفعال الإنجازية أو

1-خليفة بوجادي، في اللّسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع ط2, العلمة, الجزائر 2012, ص52.

2- ترجم إلى الفرنسية سنة 1970 بعنوان .« Quand dire c’est faire »

3- خليفة بوجادي، في اللّسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص53.

4- ينظر : فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، ط1، القاهرة، جمهورية مصر العربية 2001. ص118.

الآدائية هي «التي تحض على فعل أو تنهى عنه،... أو التي ترد أوصافا لأحداث، وميزتها هو أن تلفظها إنما ينجز الحدث الذي تصفه»[1]

بعدها أصدر الفيلسوف الأمريكي جون سيرل John Searle كتابه المعنون Speech acts[2] سنة 1969، إذ يعتبر أوّل من أوضح فكرة أوستن وذلك بشرحها أكثر وتقديم شروط إنجاز كل فعل، وكيفية تحوّل الأفعال من حالة إلى أخرى. وعموما تعتبر أفكار سورل مرحلة تكميلية لجهود أوستن.

وتعتبر هذه المحاولات الانطلاقة الأولى لنشأة التداولية التي تظهر أكثر في أعمال جون استن وجون سورل، وانطلاقا من هذه المبادئ والأفكار انطلقت المدرسة الفرنسية المتمثلة في مجموعة من الدارسين في تطوير وتعريف هذا المنهج والوصول به إلى مراحل أكثر نضجا وتطوّرا من خلال توجه كل دارس وتخصصه في دراسات القضايا المتعلقة بالدرس التداولي، ونذكر من بين هؤلاء الدارسين الذين بزغت أعمالهم، دومينيك مانغونوDominique Maingeneau ، أوزوالد ديكرو Oswald Ducrot، اميل بنفنيست Emile Beveniste وكاترين كاربرات أوريكيوني Catherine Kerbrat Orecchioni، حيث كان لهؤلاء اللّسانين الباع الطويل في ظهور التداولية كمنهج لساني متطوّر.

تعتبر التداولية من النظريات اللّسانية الحديثة التي اهتمت بتحليل الكلام، حيث تعتمد في الكثير من مفاهيمها على اللّسانيات، وتجدر بنا الاشارة إلى أن قبل ظهور اللّسانيات التداولية، ظهرت الكثير من الاتجاهات التي عينت بدراسة اللّغة من نواح مختلفة، ولكن هذه الاتجاهات قوبلت بالكثير من النقد وعلى أساسها ظهرت التداولية ومن بين هذه الاتجاهات نجد البنوية، التي تعتمد في تحليلها للنصوص على :

- جعل النص بنية شكلية محضة، ولا يجب ابعاده خارج البناء الذي يضمه.

- اللّغة نظام، حيث لا يمكن تحليل الظواهر اللّغوية بعزلها عن غيرها، فهي أجزاء في نسق أكبر، فتركزت أفكار البنيوية على عزل النص عن سياقه الثقافي والتاريخي والاجتماعي، كما انشغل البنيويون بتحديد العلاقات بين الوحدات اللّغوية بغض النظر عن المعنى الفعلي للنص، وانطلاقا

1- خليفة بوجادي، في اللّسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، 90-91.

2- ترجم إلى الفرنسية سنة 1972 بعنوان « Les actes de langage »

من هذه المرتكزات شرع النقاد في نقد البنيوية، وبالتالي البحث عن البديل، فانتقل النشاط إلى السميائية والتأويل، والبحث عن المعنى إلاّ أنّ هذا الأخير لم يخرج عن فكرة النظام اللّغوي التي تبناه البنيويون، لتأتي بعدها لسانيات النص التي اعتدت بالنص لجعله موضوع اللّسانيات ويرى علم النص أن «مهمته هي أن يصف الجوانب المختلفة لأشكال الاستعمال اللّغوي، وأشكال الاتصال ويصححها، كما تحلل في العلوم المختلفة، في ترابطها الداخلي والخارجي»[1]. فلسانيات النص تدعو إلى الاهتمام بالجانب التبليغي في اللّغة وظروف التواصل التي تحدّد بنية اللّغة. وبعدها ظهرت اسهامات المدرسة الوظيفية التي تناولت الجملة بالنظر إلى حركية التواصل فيها، حيث انتقلت هذه المدرسة من مفهوم التواصل، باعتباره وظيفة أساسية في النشاط اللّغوي ونتج عنه ظهور ما يسمّى بالنحو الوظيفي الذي يهدف إلى «رصد خصائص لغات طبيعية متباينة نمطيا، وإلى دراسة الجمل للوصول إلى تنميطها وفق ما يطابق العمليات الحاصلة في ذهن المتكلم»[2] وإلى أن « يكوّن نظرية خطاب شاملة وتفسّر الوصف والتفسير الملائمين، خصائص الخطاب الطبيعي أيا كانت أشكاله وأنماطه وظروف انتاجه...»[3] ، بالتالي فاللّسانيات الوظيفية جعلت الخطاب موضوع الدرس اللّساني.

وانطلاقا من هذه المكاسب الفلسفية والبلاغية واللّسانية، نشأت التداولية لتصبح اتجاها لسانيا حديث يعني بدراسة اللّغة في الاستعمال، والاهتمام بالتواصل وطبيعة المتلقي.

في مصطلح التداولية:

لقد تعددت المصطلاحات والمقابلات التي تحيل إلى مفهوم التداولية نذكر من بينها: براجماتيكا، البراغماتيك، البراغماتية، كما نجد التداولية، التداوليات، المقامية، الوظيفية، والذرائعية النفعية وغيرها من المصطلحات، غير أن من بين المصطلحات الشائعة الإستعمال نجد:

1- فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ص11.

2- خليفة بوجادي، في اللّسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص61.

3- أحمد المتوكل: قضايا اللّغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب، من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر و التوزيع، ط1، المغرب 2011. ص276.

1- الذرائعية:

ونجد الكثير من الدراسين من يسميها "بالنفعية" «وهي اتجاه يهتم بالفائدة العملية للفكرة كمعيار لصدقها، وتعتبر فكرة موضوع ما هي إلاّ مجموعة أفكار لكل الوقائع المتخيلة، فهي نظرية فلسفية تلح على المكوّن العملي والفاعل للإنسان بقصد بلوغ المعرفة»[1]، واستعمل هذا المصطلح كترجمة لمصطلح (Pragmatism) وكترجمة لمصطلح (Pragmatique) في الفرنسية و(Pragmatics) في الانجليزية، ونجده مشاع في الكثير من المراجع الفلسفية واللّسانية.

2- البراغماتية:

هي ترجمة للمصطلح الأجنبي (Pragmatisme) و (Pragmatism) في الفرنسية والانجلزية على التوالي، وهو «توجه معرفي يعني بخصائص استعمال اللّغة والدوافع النفسية للمتكلمين، وردود أفعال المستقبلين والنماذج الاجتماعية للخطاب وموضوعه، وذلك بمراعاة الخصائص التركيبية والدلالية»[2]، وقد وظفه سعيد علوش في تعريفه لمصطلح (Pragmatique) في النقد الغربي المعاصر[3] وشاعت تسمية البراغماتية في أواخر القرن العشرين، عندما كان هذا التوجه غير معروف في الدراسات النقدية العربية.

3- التداولية:

وهو المصطلح الأكثر استعمالا من طرف الدراسين في الوقت الحالي، خاصة في مجال اللسانيات وتحليل الخطاب، وهو علم يدرس اللّغة في الاستعمال وكيفية استعمال هذه اللّغة من طرف متكلم معين في سياق معين للتأثير على متلقّ محدّد.

1-نعمان بوقرة، اللسانيات واتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، ط1، 2009. ص161.

2-المرجع نفسه، ص161.

3-ينظر : سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، ط1، الدار البيضاء، المغرب 1985. ص48.

الفصل الأول

تحديد المــفــاهـــــيم

أولا: في مفهوم التداولية وعلاقتها بالعلوم الأخرى

1- التداولية المفهوم والآفاق

2- علاقة التداولية بالعلوم الأخرى

- اللّسانيات البنيوية

-علم الدلالة

- النحو الوظيفي

- البلاغة

- لسانيات النص وتحليل الخطاب

ثانيا: في مفهوم الذاتية

1- مفهوم الذاتية

2- أهم عناصر الذاتية

أ- الإشاريات

- الضمائر

- أسماء الإشارة

- ظرف الزمان

- ظرف المكان

- ألفاظ القرابة

ب - الذاتيات

- الأحكام القيمية والوصفية

ثالثا: في مفهوم الشعر الجاهلي وخصائصه

1- السياق التاريخي والإجتماعي في العصر الجاهلي

2- اغراض الشعر الجاهلي وخصائصه

3- ظاهرة المعلّقات

أولا: التداولية وعلاقتها بالعلوم الأخرى

1- التداولية : المفهوم والآفاق

يعود أول استعمال لمصطلح التداولية إلى الفيلسوف الأمريكي "شارل موريس" سنة 1938، حيث قدم تعريفا في سياق الإطار العام لعلم العلامات أو السيمائية، في مقال له ركز فيه على مختلف التخصّصات التي تعالج اللّغة وهي النحو أو التركيب الذي هو دراسة العلاقة الشكلية بين العلامات بعضها البعض، الدلالة وهي علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات، والتداولية هي دراسة علاقة العلامات بمستعمليها وبمؤوليها، وبالتالي فهي جزء من السميائية.(1)

فالتداولية عند موريس هي جزء من السيميائية وأحد مكوناتها، تدرس العلاقة بين العلامات ومستعمليها.

وانطلاقا من هذا التعريف اكتسبت التداولية العديد من التعريفات وتباينت من باحث إلى آخر، فقد «يقتصر الباحث على دراسة المعنى وليس المعنى بمفهومه الدلالي البحت، بل المعنى في سياق التواصل، مما يسوغ معه تسمية المعنى بمعنى المتكلم فيعرّفها بأنها دراسة المعنى التواصلي أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله»(2) ، فهي بهذا المعنى تعني دراسة اللّغة من خلال ربطها بالسياق الذي يؤدي فيه المتكلمون خطاباتهم فهي إذن مرتبطة بالسياق أي المقام الذي تستعمل فيه اللّغة، كما تهدف إلى اكتشاف مدى فهم السامع لمقاصد المتكلم، فموضوعها هو التواصل البشري المعتمد على السياق وعليه يقول فرانسواز أرمينيكو بأن «التداولية محاولة الإجابة عن أسئلة كالتالي: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدنا بكذا، بينما يظهر واضحا أن في إمكانه ذلك؟ فمن يتكلم إذن؟ وإلى من نتكلم؟ من يتكلم ومع من؟ من يتكلم ولأجل من (...) كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنا نريد قوله؟»(3) فالتداولية تقوم على دراسة استعمال اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدّد، ولا تعنى بدراسة اللغة كبنية مستقلة وإنما تهتم

1- ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، لبنان 2004. ص 21.

2- المرجع نفسه، ص 22.

3- فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الانماء القومي، الرباط 1986. ص 7.

بدراسة علاقة التفاعل بين المتلفظ والمخاطب، فهي إذن «دراسة استعمال اللّغة في مقابل دراسة النظام اللّغوي».[1]

أما الجيلالي دلاش فيرى أن التداولية هي اختصاص جديد في الدراسات الإنسانية إذ يقول «أنه تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللّغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما تعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث».[2] فالجيلالي دلاش يساوي بين اللّسانيات التداولية ولسانيات الحوار أو الملكة التبليغية، فتأويل الخطاب والحديث هو البحث عن مقاصد المتكلم وأغراض كلامه وبالتالي يتجاوز المعنى الحرفي للكلام إلى المعنى المراد أو المقصود.

وغير بعيد عن هذا يؤكد فرانسيس جاك أن «التداولية تتطرق إلى اللّغة كظاهرة خطابية واجتماعية معا»[3] أي أنها تهتم بالخطاب الذي يوظف اللّغة كأداة تواصلية وعلى المخاطب استحضار جميع شروط إنتاج الخطاب لفهم معنى المتكلم، فالتداولية تسند بشكل مباشر إلى علم الّغة الاجتماعي باعتبارها تدرس اللّغة كظاهرة اجتماعية.

كما تبحث التداولية في كل ما من شأنه أن يقرب الفهم والتواصل بين المتكلم والسامع، فهي تبحث في السياق وفي كل الظروف الاجتماعية والثقافية والزمنية والتاريخية والمكانية التي يمكن أن تساعد المستمع، وقدراته للوصول إلى المعنى الذي يقصده المتكلم وأغراض كلامه، فالسامع يسعى إلى فك شفرات المعنى أو شفرات الخطاب، فهي بذلك تسعى إلى صناعة معنى يكون متداولا بين المتكلم والسامع، فالكل يتعاون ويتفاعل للوصول إلى المعنى الكامن في خطاب ما من خلال جميع السياقات الاجتماعية واللغوية.

ومن جهة أخرى فإن مسعود صحراوي يرى أن الحديث عن التداولية وعن شبكتها المفاهيمية «يقضي الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة لأنها تشي بانتمائها إلى حقول

1- Patrick charaudeau, Dominique Maingueneau, Dictionnaire de L'analyse du discours, Seuil, Paris, 2002.p.455.

2- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، الجزائر، 1992. ص 1.

3- فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، ص 12.

مفاهيمية تضم مستويات متداخلة كالبنية اللّغوية وقواعد التخاطب، والاستدلالات والعمليات الذهنية المتحكمة في الإنتاج والفهم اللّغويين، وعلاقة البنية اللّغوية بظروف الاستعمال...».[1]

فالتداولية تتداخل مع كثير من الحقول المفاهيمية، فهي تربطها صلات مع عدة مفاهيم كالتداوليات اللّغوية، وعلوم الاتصال وظروف استعمال الخطاب وشروط التخاطب وغيرها وبالتالي فهي تقوم على مجموعة من المفاهيم والقضايا وكل مفهوم من مفاهيمها ومرتكزاتها انبثق من مصدر معرفي مختلف «فالأفعال الكلامية مثلا، مفهوم تداولي انبثق من مناخ فلسفي عام وهو تيار الفلسفة التحليلية بما احتوته من مناهج وتيارات وقضايا، وكذلك مفهوم نظرية المحادثة الذي انبثق من فلسفة بول غرايس، وأما نظرية الملائمة فقد ولدت من رحم علم النفس المعرفي وهكذا....».[2] وبالتالي فهي استندت في كثير من مفاهيمها وأسسها إلى حقول معرفية مختلفة فالتداولية « لا تشكل نظرية واحد، بل على عكس من ذلك بقيمة التجانس في أصولها وفي توجهاتها»[3]، فهي ليست نظرية موحدة وإنما هي نقطة التقاء العديد من العلوم والمناهج كاللّسانيات وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها.

من خلال هذا القول نستنتج أن الدراسات التداولية هي حقل معرفي واسع، لذلك تفرعت إلى نظريات متعددة، اهتمت كل واحدة منها بجانب تداولي معين، كما لم تقتصر الدراسات التداولية على الباحثين اللّسانيين فحسب، بل تعدت إلى باحثين آخرين من عدة تخصصات وحقول معرفية متنوعة.

وتكمن أهمية المنهج التداولي في تحليل الخطاب في دراسة اللغة في التواصل من خلال ربطها بالسياق «فالدرس اللّغوي التداولي يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل، وليس بمعزل عنه، لأن اللّغة لا تؤدي وظائفها إلا فيه فليست وظائف مجردة، وبما أن الكلام يحدث في سياقات اجتماعية فمن المهم معرفة تأثير هذه السياقات على نظام الخطاب المنجز».[4] فالخطاب يستوجب

1- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت 2005. ص 17.

2- المرجع نفسه، ص 18.

3- Georges- ELias Sarfati, Précis de pragmatique, Nathan, Paris 2002.p.5.

4- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص 23.

حضور كل من المرسل والمرسل إليه وبالتالي فإن نجاح عملية التخاطب مرتبطة بربط الكلام بالسياق لينتج للمرسل إليه فهم رسالة المرسل وهذا ما تقوم عليه التداولية.

ودراسة السياق وتحليله ليس بالأمر السهل نظرا لأهميته ودقته لذلك يقول "كرناب": «التداولية درس غزير وجديد (...) إنها قاعدة اللّسانيات، إذ أنها محاولة للإجابة عن أسئلة تطرح نفسها على البحث العلمي، ولم تجب عليها المناهج الكثيرة، وقد لا تسلم من المشكلات حالها حال أي منهج لدراسة اللّغة».[1]

وقد اختلف الباحثون في تحديد عناصر السياق، مما جعل النظر إلى المباحث التي تقوم عليها التداولية تختلف باختلاف وجهة النظر إلى السياق، لذلك جاء هانسون بتصوّر يقرّب أهم التفرّعات التي وسعتها التداولية في امتداداتها، ويهدف من خلاله إلى توحيد أجزائها وفق درجة تعاقد السياق من جزء إلى آخر، لذلك يقول أن «كل درجة تعتمد على اعتبار مظهر من مظاهر السياق ويمكن القول باعتبار السياق من درجة إلى أخرى وتعقده كذلك »[2] فميز بين:

أ) **تداولية من الدرجة الأولى:** يتمثل موضوع الدراسة في هذه الدرجة في الرموز الإشارية والتعابير المبهمة ضمن ظروف استعمالها أي التي لا يتحدّد معناها إلا في سياق الخطاب، التي يتنوع معناها حسب تنوع السياقات التي ترد فها، وهذه التعابير والرّموز تحيل إلى الذاتية في الخطاب، وتعتمد هذه التداولية على الموجودات أو محددات الموجودات، ومن ثم فالسّياق الوجودي والإحالي هو: المخاطبون، ومحدّدات الفضاء والزمن » .[3]

ب) **تداولية من الدرجة الثانية**: تتمثل في مدى ارتباط الموضوع المعبر عنه بملفوظه، على أن يكون الموضوع مختلف من الدلالة الحرفية للملفوظ، أي دراسة حجم ما يبلغه المتكلم من الدلالات في الملفوظ الذي يؤدي ذلك، ومدى نجاحه أو فشله وبالتالي دراسة انتقال المعنى من الدلالة الصريحة إلى الدلالة الضمنية، ويتمثل السياق في هذه الدرجة «سياق الإخبار والاعتقادات

2- المرجع نفسه، ص24.

3- فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، ص 38.

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المتقاسمة، لا السياق الذهني بل السياق المترجم إلى تحديدات العوامل الممكنة »[1]. فالسياق يضم الموجودات، نفسية المتخاطبين وحدسهم، والاعتقادات المشتركة بينهم التي تضمن استمرار عملية التواصل.

ت) **تداولية الدرجة الثالثة:** وهي المتمثلة في تداولية أفعال الكلام التي أسس لها أوستن، وطوّره سورل (searl) وتنطلق من فكرة أن الأقوال الصادرة لا تصف واقعا بقدر ما تسعى إلى تغييره، فهي عبارة عن أفعال ذات أبعاد وأهداف اجتماعية، ولا يتحقق الفعل الكلامي إلا من خلال السياق الذي يتكفل بتحديد جدية التلفظ والدعاية، أو انجاز فعل معين.

والسياق في هذا المحتوى ليس معزولا عن سياقات الدرجتين السابقتين، لكنه أكثر تعقيدا وغنى، فبالإضافة إلى دور عناصر السياق السابقة في تحديد أفعال الكلام المبهمة والمتضمنة في القول، نجد عناصر أخرى تلعب هي كذلك الدور نفسه تتمثل في العوامل الفردية والاجتماعية للفاعل المتكلم.[2]

وهناك من الدارسين من عد اسهام تطور هذه التداولية في نشاط بحث الملفوظية، لأنها نشأت في حضنها، مما ساعد أيضا في تقدّم الدرس الدلالي، الذي أصبح هو الآخر محكوما بتيار سوسير وتيار أوستين شأنه في ذلك شأن اللّسانيات عموما.

كما نجد الكثير من الدارسين من «عدّ ما قدمه بنفيست من بحوث الملفوظية نظرية مستقلة من النظريات التداولية، تجمع كلها حول دراسة الآثار التي تشير إلى عناصر ذاتية في الخطاب (ضمائر، إحالات على الزمان، إحالات على المكان،...) ».[3]

كما يرى ليتشّ أن «المنهج التداولي حل لبعض المشكلات التي برزت في التحليلات اللّغوية الشكلية من وجهة نظر كل من المرسل والمرسل إليه، فالمرسل يبحث عن أفضل طريقة لينتج

1- فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، ص 38.

2- ينظر : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- خليفة بوجادي، في اللّسانيات التداولية، مع محاولة تأصيله في الدرس العربي القديم، ص 81 .

خطابا يؤثر به في المرسل إليه، كما أن المرسل إليه يبحث عن أفضل كيفية للوصول إلى مقاصد المرسل كما يريدها عند إنتاج خطابه لحظة التلفظ (...) وفقا لعناصر السياق»[1].

وتهتم التداولية بالخطاب باعتباره انتاج لغوي "منظور اليه في علاقته بظروفه المقامية وبالوظيفة التواصلية التي يؤديها في هذه الظروف، وتتفق على أن التداولية في عمومها تهتم بجمع شروط الخطاب، تعتمد أسلوبا ما في فهمه وادراكه، بدراسة كيفية استخدام اللّغة وبيان الأشكال اللّسانية التي لا يتحدد معناها إلا باستعمال وشرح الحال والمقام الذي يؤدي فيه المتكلمون خطاباتهم"[2]. فاهتمام التداولية ينصب أساسا على المتكلم انطلاقا من سياق الملفوظ اللّغوي بالإضافة إلى تحليل الأفعال الكلامية ووظائف المنطوقات اللّغوية.

كما تهدف التداولية إلى دراسة وشرح السياق والمقام الذي يؤدي فيه المتخاطبون خطاباتهم، وبالتالي فهي تهتم بالمتكلم وظروف استعمال الخطاب، كما يهتم بدراسة أفعال الكلام أي دراسة «الهدف أو الغاية (le but) الذي يحمله الفعل الكلامي، فهو يحمل غرضا معينا يمكن معرفته من خلال دراسة مجمل العلاقات التي تربط الأشياء والعالم، واختلاف الحالة النفسية المعبّر عنها، والمراد بذلك القصد والصدق وغيرها من الاختلافات ».[3] فالفعل الكلامي يعتبر أهم مراجع التداولية، حيث ارتبطت اللّغة بإنجازها الفعلي في الواقع، ولتضمن هذه الأفعال الإنجاز الموفق وجب تحديد بعض المقوّمات التي أولت لها التداولية اهتماما كبيرا وهي« منزلة وظروف المشاركين في الفعل اللّغوي، وترصد الغرض التواصلي من فعل الكلام، إضافة إلى نوايا ومقاصد المشاركين » .[4]

كما نجد التداولية ترتكز على دراسة الكلام الضمني أو الكلام غير مصرّح به باعتبار أن الكلام يحمل دلالتين، دلالة مباشرة صريحة ودلالة غير مباشرة والكلام الضمني يظهر من خلال الدلالة المباشرة، فهو بذلك كلام غير مباشر وغير مصرح به ولمعرفته يتطلب معرفة قوانين

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص23.

2- ينظر : خليفة بوجادي، في اللّسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس اللّغوي العربي القديم، ص 69.

3- John Searl, Sens et Expnession, Etude de Theorie des Actes de Langage, traduction et preface par Joelle Proust, les edition de Minuit, Paris 1982.p.49.

4- Dominique Maingueneau, Les termes cles de l’analyse du discours, Seuil, Paris, France 1996.p.10.

الخطاب تقول أوريكيوني: «أننا لا تستعمل الكلام المباشر إلا نادرا، أو ربما لا نستعمله على الإطلاق ونفضل عنه استعمال الكلام غير مباشر أي الضمني فعندما نقول أن الجوّ حار هنا فهذا لا يعني القول أن الجوّ حار وفقط وإنما القصد من ذلك أن نفتح النافذة أو اطفاء المدفأة .. الخ » .[1] فالمتكلم لا يستعمل في كلامه الكلام المباشر إلا غالبا وقد لا يستعمله إطلاقا فكل ما يتلفظ به عبارة عن كلام ضمني يفهم من الكلام الصريح المباشر، وهذا ما اهتمت بدراسته التداولية.

فالتداولية في عموم معناها هي دراسة اللّغة في الاستعمال، تقوم على مراعاة قواعد التخاطب، للوصول إلى المعنى وإحداث الأثر المناسب، كما تبحث في الشروط اللاّزمة لنجاح عملية التخاطب بين المتكلم والسامع، كما أن الدراسة التداولية لا تكتفي بوصف وتفسير البنية اللّغوية، بل تتجاوز ذلك إلى دراسة اللّغة وعلاقتها بمستعمليها ومفسّريها مع مراعاة جوانب السياق الذي يعتبر عنصرا أساسيا في الدرس التداولي.

2- علاقة التداولية بالعلوم الأخرى:

أ- علاقة التداولية باللّسانيات البنيوية:

يرى الكثير من الدارسين أن العلاقة بين اللّسانيات البنيوية والتداولية هي علاقة تكامل، حيث تعتبر التداولية مكملة للبنيوية، كونها تهتم بدراسة الكلام وهو العنصر الذي أبعده فردينا ند دي سوسير من الدراسة «حيث ركزت اللّسانيات على دراسة النظام اللّغوي من صوت وصرف وتركيب ودلالة»[2] واهملت الكلام حيث يأتي في المرتبة الأخيرة من التقسيم الثلاثي الشهير الذي وضعه سوسير « لغة، لسان، كلام» و يقول في التمييز بينهما: «اللّغة تختلف عن الكلام في أنها

Catherine Kerbrat-Orecchoni, l’implicite, Armand Colin, Paris 1986.p.5. -1

2- جاك موشلر ، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين، سيناترا، تونس 2010. ص23.

شيء يمكن دراسته»[1] لذلك سعى سوسير إلى ابعاد جميع المعايير الذهنية والنفسية التي تبعد اللّغة عن طبيعتها الإجتماعية كونها ظاهرة اجتماعية منظمة بين جميع أذهان البشر بينما الكلام هو نشاط فردي فهو «الأداء الفعلي للّغة»[2] و بالتالي يختلف من فرد إلى آخر، فهو نشاط فردي ملموس ومراقب يمكن ادراكه من خلال كلام الأفراد. فاللّغة هي مجموعة من العلامات والرّموز والقواعد المستعملة من طرف مجموعة من الأفراد بهدف التواصل، وتوجد كاتفاق بين أفراد المجتمع الواحد فهي «مجموع كلي متكامل كامن ليس في عقل واحد، بل في عقول جميع الأفراد الناطقين بلسان معين»[3]. وحسب هذا التعريف يتبين لنا أن اللّغة قاسم مشترك بين الأفراد، إذ لا يمكن للفرد أن يختزن في دماغه مجموع العلامات وإنما تتكامل مع مجموع الأفراد الذين يربطهم لسان موحد.

ويرى أحد الفلاسفة المحدثين العلاقة بين التداولية واللّسانيات البنوية وهو"رادلف كرناب" أن «التداولية قاعدة اللّسانيات أو أساسها المتين الذي تستند اليه، فهي حاضرة في كل تحليل لغوي، موجودة معها قرينة لها»[4] فالتداولية تدرس كل عنصر أهملته اللسانيات ولم تعتبره وبالتالي فهي استطالة للسانيات، نحو كشف الأبعاد الاجتماعية والنفسية والثقافية للّغة.

ب- علاقة التداولية بعلم الدلالة:

يعرف علم الدلالة بأنه « دراسة المعنى أو العلم الذي يدرس المعنى أو ذلك الفرع من علم اللّغة الذي يتناول نظرية المعنى أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرّموز حتى يكون قادرا على حمل المعنى».[5]

3- فرديناند دي سوسير، علم اللغة، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد، العراق 1988. ص33.

2- ناصر حنيفي، مختار لزعر، اللسانيات منطلقاتها النظرية وتعميقاتها المنهجية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2009. ص 45.

3- أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، ط4، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر 2008. ص123.

4- نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والاجراء، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر 2009. ص21.

5- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، ط5، القاهرة 1998. ص36.

فعلم الدلالة يهتم بدراسة المعنى فهو علم يعتمد على المعنى كموضوع له، وعلى الرغم من أنه جزء من اللّسانيات، إلاّ أنه يتضمن ويشمل كل اللّسانيات لأنه لا يمكن دراسة أي مجال من اللّسانيات دون الاستعانة بالمعنى، هذا الاهتمام بالمعنى يجعل علم الدلالة حاضرا في مختلف الدراسات اللّسانية، إذ يعتبر المعنى هو المقصد الأوّل والأخير لإنتاج السلسلة الكلامية انطلاقا من الأصوات وانتهاءا بالمعجم مرورا بالدراسات الإفرادية والتركيبية، فهو يهتم بالمعنى اللّغوي من مفردات أو تراكيب، وإن كان الاهتمام بالمفردات هو الأكثر انتشارا و ذيوعا.

وتشير جل التعريفات لعلم الدلالة على أنه دراسة المعنى، وتشترك التداولية وعلم الدلالة في موضوع الاهتمام بالمعنى، رغم اختلاف تناول كل منهما لهذا الجزء من الدراسة، وقد عد "لاترافاس La traverse" «التداولية امتداد للدرس الدّلالي»[1]، كما تسعى التداولية كذلك لمعرفة مقاصد المتكلم وأغراضه.

وقد ميّز الباحثون بين علم الدلالة والتداولية كتمييزهم بين القدرة أي الكفاءة والأداء، فيصنف علماء اللّغة علم الدلالة ضمن القدرة على معرفة اللّغة، أمّا التداولية فتصنف ضمن الأداء والإنجاز واستخدام اللّغة فمثلا:

في هذه الأرض حيات سامة فالمعنى الحقيقي هو وجود حيات سامة في الأرض حقيقة أما استخدامه فمختلف بحيث يتجاوز الحقيقة إلى المجاز، فيؤدّي معنى التحذير أو التنبيه، فهنا التمييز يحيل إلى أن علم الدلالة موضوع يتصف بالتشعب وتداخل المسائل في ميادين متنوعة، ولهذا يلح اللّسانيون المحدثون على جعل علم الدلالة خاصا بدراسة معنى الكلمات أو المعنى اللّغوي دون أن يتطرّق إلى مسائل جانبية. لهذا فإن علم الدّلالة يهتم بالمعنى بعيدا عن السياق الذي ورد فيه، بينما تدرس التداولية المعنى مع مراعاة مقاصد المتكلم وأغراض كلامه، ورغم هذا الاختلاف والتمايز إلاّ أنهما متكاملين.

وقد افضت دراسة شارل موريس Charle Mourris للعلاقة بين التداولية وعلم الدّلالة إلى وجود مجالات ثلاث لدراسة المعنى:

1) **المجال التركيبي أو النحوي:**

1- خليفة بوجادي، في اللّسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 102.

ويتمثل هذا المجال في العلاقات بين أصوات الكلمة الواحدة، أو العلاقة بين كلمات الجملة الواحدة، أي العلاقة بين العناصر النحوية داخل التركيب حيث تخضع هذه العلاقة إلى مجموعة من القوانين التي تضبط العملية النحوية للكلام بمعنى «دور هذا المستوى الإشراف على مجموع العلائق إلى جانب القوانين التي تسهر على سلامة تحويل الجملة أو العبارة إلى نظير لها».(1)

فكل عنصر لا يكسب قيمته إلا بمقابلته مع الوحدات الأخرى داخل السياق، وكل وحدة تحتل موقعا داخل التركيب، وتتقابل مع غيرها من العناصر الأخرى.

2) المجال الدّلالي:

وهو دراسة علاقات العلامات فيما بينها وبين الأشياء، أي « مجموع العلائق القائمة بين المعاني والأشياء التي تعينها في إطار سياق اللّغة، أو باعتبارها جملة مفصولا ذلك عن سياق الاستعمال، إلاّ أن المعنى المتوصل إليه في هذا المستوى قد يحمل بعض الزيف، لاسيما إذا راعينا انقطاع الإحالة، وغياب الإحالة، وغياب المراجع، وحضور المجاز بمختلف أنواعه».(2) فهو دراسة معنى الأشياء بعيدا عن السياق الحقيقي الذي ورد فيه.

3) المجال التداولي:

يدرس هذا المجال علاقة العلامات بمفسريها، وتدرس كل ما له علاقة باللّغة، سواء أكان يعنى بشكل الخطاب من لغة إلى ايماء أم بدلائلها أو بالدلالة وعلاقتها بالأشياء والحسيات الخارجية أو العلاقات والإشارات، واستنتاجات الكلام أم بالفهم الضمني دون الحديث لتتم عملية التبليغ على أحسن وجه، «إن لكل لفظة دلالة خاصة، فحينما نستعمل لفظة دون أخرى نحملها دلالة دون غيرها ونعلم أنها قادرة على ايصال مقاصدنا التي نريدها إلى مستمعينا، فالإختيار لم

1- نواري سعودي أبوزيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والاجراء، ص22.

2- المرجع نفسه، ص 23.

يكن بطريقة اعتباطية، ولكن هناك أسباب تدفعنا للتلفظ بهذه الجملة بصيغتها التي قلناها دون أن نلفظ جملة غيرها».[1]

ويبحث هذا المجال في السياق، وفي الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية والتاريخية التي تمكن كل من المتكلم والسامع فهم مقاصد كل واحد وأغراض كلامهم أي علاقة العلامات بين الناطقين بها والمتلقين لها.

ج- علاقة التداولية بالنحو الوظيفي:

يعد النحو الوظيفي من أهم روافد التداولية، وقد جعل بعض الدارسين الوظيفية في عموم معناها تقابل التداولية أو هي امتداد لها.[2] فالنحو الوظيفي يقدّم دعائم هامة للتفسير التداولي للخطاب من منطلق أن خصائص البنيات اللّغوية تتحدد من ظروف استعمالها.

نشأت نظرية النحو الوظيفي مع الباحث الهولندي "سيمون دايك" خلال السبعينات، من خلال كتابة النحو الوظيفي (Fonctional grammar) حيث يقول عن النحو الوظيفي أنه «النحو الذي لا يقتصر على الدور الذي تلعبه الكلمات أو العبارات في الجملة، أي الوظائف التركيبية (أو النحوية: كالفاعل والمفعول..)، لأن هذه الوظائف لا تمثل إلا جزءا من كل، تتفاعل مع وظائف أخرى مقامية أو تبليغية هي الوظائف الدلالية في التداولة، بحيث تترابط الخصائص البنيوية للعبارات اللّغوية، بالأغراض التبليغية (التواصلية) التي تستعمل هذه العبارات وسيلة لبلوغها»[3]، فالنحو الوظيفي يهدف إلى وصف اللّغات الطبيعية وتفسيرها بطريقة كافية نفسيا ونمطيا وتداوليا، لذلك فاحتلت نظرية "سيمون ديك" مكانة متميزة بين النظريات اللّسانية المعاصرة.

ويعد الدكتور "أحمد المتوكل" رائد النحو الوظيفي في العالم العربي، حيث عمد إلى شرح وتطوير نظرية "سيمون ديك" من خلال مجموعة من الأبحاث ساهمت في اغناء الدراسات النحوية

1- محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، ص14.

2- ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللّغة العربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء، المغرب 1985. ص8.

3- أحمد المتوكل، من البنية الحملية إلى البنية المكونية: الوظيفية المفعول، دار الثقافة، الدّار البيضاء 1987. ص5.

العربية بمصطلحات حديثة أدى إلى اثراء التراث اللّغوي العربي وبالتالي فالنحو الوظيفي في نظر كل من "سيمون ديك" و "أحمد المتوكل"، «يجمع بين المقولات النحوية المعروفة، وبين ما عرضته نظرية أفعال الكلام»[1]، وبالتالي فهو يدرج ضمن نظرية تداولية شاملة كاملة.

د– علاقة التداولية بالبلاغة:

تعد البلاغة من أبرز العلوم التي عملت على ابراز العلاقات التداولية للّغة، لأنها تهتم بدراسة المستويات اللّغوية المختلفة: اللّفظية، الدلالية، التركيبية و مختلف العلاقات القائمة بينها.
تهتم البلاغة بكل ما يترىط باللّغة وممارستها، وتركزت دراسة البلاغيين واللغويين بصفة عامة على محاولة وصف ما بين بنية اللّغة ووظيفتها « باعتبار التراكيب اللّغوية رسائل لتأدية أغراض تواصلية معينة، انصبت هذه الدراسات على رصد العلاقة بين كل نمط من أنماط التراكيب والغرض المتوفي تحقيقه، وعلى أساس هذا المبدأ درس وظائف عديدة نحو التوكيد، التخصص...».[2]

إن المبدأ الذي انطلقت منه البلاغة وهو مبدأ وظيفي تداولي، يقوم على دراسة خصائص تراكيب اللّغة من جهة وأغراضها التواصلية، التي وضعت من أجله من جهة أخرى. يقول السكاكي «البلاغة هي بلوغ المتعلم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وايراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ولها_أغنى البلاغة_ طرفان أعلى وأسفل....و بينهما مراتب تكاد تفوق الحصر».[3] تعريف السكاكي يحمل جملة من السمات التي تؤكد البعد التداولي للبلاغة وهي على المتكلم أن يتجنب التعقيد في أداء المعاني وأن يختار الفصيح من مفردات اللّغة، بالاضافة إلى استعمال جملة من الأدوات البلاغية من مجاز وتشبيه واستعارة وهي مؤشرات عنيت التداولية بدراستها.

1- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللّغة العربية، ص9.

2- أحمد المتوكل، اللّسانيات الوظيفية، مدخل نظري، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط2، الدار البيضاء 2010. ص85.

3- أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 2000. ص 354.

وعلى العموم فإن البلاغة والتداولية تشتركان في الإعتماد على اللّغة بعدّها أداة لممارسة الفعل على المتلقي في سياقات متخصصة، فهما علمان يتفقان في « دراسة الوسائل اللّغوية التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل وعوامل المقام المؤثرة في اختياره أدوات معينة دون أخرى للتعبير عن قصده كالعلاقة بين الكلام وسياق الحال، وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطب على الكلام والمقاصد من الكلام».(1)

فكل من البلاغة والتداولية تتخذ اللّغة وسيلة للابلاغ والتواصل، وتدرس اللّغة حال استعمالها لذلك يمكننا القول أن البلاغة بمثابة نظرية موسعة تكامل فيها البلاغة واللّسانيات التداولية بشكل واضح.

هـ– علاقة التداولية باللّسانيات الاجتماعية والنفسية:

نشأت اللّسانيات الاجتماعية كرد فعل على اللّسانيات البنيوية التي أبعدت المكوّن الاجتماعي في اللّغة في سياقها الاجتماعي، فهي بذلك تدرس العلاقات القائمة بين اللّغة والأفراد، كما تدرس العلاقة ما بين اختيار الفرد لنمط محدّد من الاتصال، والوضعية الاجتماعية التي يوجد فيها، وتهتم أيضا « بدراسة اللّهجات الاجتماعية في كل مجتمع لغوي من حيث الخصائص الصوتية والنحوية والدلالية والصرفية وتوزيعها داخل هذا المجتمع ودلالاتها على المستويات الاجتماعية المختلفة».(2)

تدرس اللّسانيات الاجتماعية خصائص اللّهجات في المجتمع ودلالة كل خاصية في سياقها الاجتماعي، وتشترك التداولية واللّسانيات الاجتماعية في بيان أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث و «الموضوع الذي يدور حول الكلام ومرتبة كل من المتكلم والسامع وجنسه، وأثر السياق اللّغوي في اختيار السمات اللّغوية وتنوّعاتها».(3)

1- جون براون وجورج يول، تحليل الحطاب، ترجمة وتعليق محمد لطفي الزليطي، منير التركي، (دط)، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية 1997. ص32.

2- نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، ص22.

3- محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، ص11.

وقد تأسست هذه العلاقة منذ ظهور اللّسانيات الاجتماعية على يد عالم الاجتماع "فيرث" والتي نشأت لإبراز السياق الاجتماعي للّغة الذي أبعدته اللّسانيات من قبلها.[1] فاهتمت اللسانيات الاجتماعية بتحليل اللّفظ ضمن السيرورة الاجتماعية، كما اقترحت توسيع مجالها « بدراسة أفعال الكلام حسب الطبقات الاجتماعية وحسب التأديات المختلفة للّغات»[2]، وهذا بعد اجتماعي وجد صداه في التداولية بحيث يتداخلان خصوصا على مستوى اكتساب الكلمة لمعان متعدّدة بتعدد المجتمع الذي قيلت فيه، فمثلا كلمة "عين" يتعدّد معناها بحسب السياق الذي ترد فيه فقد تدّل على عين الماء وقد تدّل على الجاسوس وتتعدى إلى معان كثيرة حسب السياق. وبالتالي فالعلاقة بين التداولية واللسانيات الاجتماعية هي علاقة تكامل.

أمّا علاقة التداولية باللّسانيات النفسية فهي تمتلك علاقة حيوية ومهمة وذلك في «الاهتمام بقدرة المشاركين التي لها أثر كبير في آدائهم مثل الانتباه والذاكرة والشخصية...»[3]، فاللسانيات النفسية تولي اهتماما بالغا بالأشخاص باعتبارهم يتميزون بسرعة البديهة, وقوة الذاكرة الشخصية اضافة إلى حدّة الانتباه، فهذه العناصر الخاصة بالأشخاص المستعملين للّغة تسهم في « شرح ملكة التبليغ الحاصلة في الموقف الكلامي، ولها تأثير كبير في آداء الأفراد»[4] فمثلا: إذا دخل أحد إلى قاعة ما فقال "الجو حار" فيهم أحد الموجودين في القاعة إلى فتح النافذة أو شعل المكيّف، فاستجابة هذا الفرد تعود إلى قوة الذكاء وسرعة البديهة وقدرته على استيعاب الكلام دون اشارة من المتكلم لكنه فهم قصده الذي يتجاوز ما تحمله الكلمات من معاني، وهذا التواصل بين الطرفين وفهم كل طرف لقصد الأخر يعد بعدا تداوليا، كما لعلم النفس علاقة بالتداولية في اكتساب اللّغة والدور الذي تلعبه السياقات في عملية اكتساب اللّغة، وكل هذا يعدّ من صلب الدراسة التداولية.

و– علاقة التداولية بلسانيات النص وتحليل الخطاب:

لقد تعدّدت دلالات النص تبعا لزوايا النظر إليه، ومجالات تناوله وتحليله شأنه شأن الخطاب، وعليه فإن هناك من الدارسين من يعد مصطلح النص مقابلا لمصطلح الخطاب وهناك من فرق بين المصطلحين فيعرّف النص بأنه «شكل من أشكال الخطاب، أو بوصفه إحدى طرق

1- ينظر: الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللّسانيات التداولية، ص 45.

2- المرجع نفسه، ص46.

3- محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص11.

4- خليفة بوجادي، في اللّسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص132.

التدليل الخطابي، أو أحد التجليات الممكنة للخطاب عموما، فهو أحد أهم وسائل انتاج الخطاب وتلقيه»[1] فالنص هو احدى أهم طرق الدلالة الممكنة على الخطاب، وهذا يدّل على أنّ النصوص تتعدد وتتنوع بتعدّد الخطابات، وتنوع طبيعة العلاقة الناشئة بينهما.

أمّا الخطاب فهو « كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء أكان مكتوبا أم ملفوظا، وتحفل أثناء التحليل اللّغوي بالدلالات غير الملفوظة، وهي مدركة لدى السامع والمتكلم أثناء الحديث، دون علامة معلنة واضحة».[2]

فلسانيات النص تهتم بدراسة أبنية النص ووظائفها كما تهتم بدراسة اللّغة ووظائفها وخصائصها وارتباطها بالشروط الخارجية المحيطة، كما تدعو إلى تجاوز الاعتداد بالجملة على أنها الوحدة الأساسية في علم اللّغة، وتوسيع مجال القواعد إذ إن الجمل في ذاتها بحاجة إلى عناصر من خارجها للإيضاح والتبليغ وبالتالي ربطت النص بالسياق وهذا يعدّ من أهم مباحث الدرس التداولي.

أمّا التداولية وتحليل الخطاب فتشتركان في «دراسة الاستعمال الفعلي للّغة، من خلال متكلمين فعليين، في مقامات فعلية»[3]، فبعدما انتقل الاهتمام من الجملة إلى الخطاب في الدراسات اللّغوية الحديثة، اهتم تحليل الخطاب بدراسة الحوار أو تحليل استعمال اللّغة وكذا السياقات التي استعملت فيها هذه اللّغة، وهذا يعد من اهتمامات الدرس التداولي.

1- عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص "المفهوم العلاقة السلطة"، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان 2008. ص45-46.

2- خليفة بوجادي، في اللّسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 42.

3- Maingueneau, les termes clés de l'analyse du discours.p.34.

ثانيا: مفهوم الذاتية

1- مفهوم الذاتية أو الفاعلية: La Subjectivité

لقد استخدم مصطلح الذاتية للتعبير عن جميع الأفكار والمشاعر لدى الفرد التي تعبر عن خصائص جسمية وعقلية وشخصية، ويشمل ذلك معتقداته وقيمة وقناعاته، كما يشمل خبراته السابقة وطموحاته المستقبلية، وتوصف بأنها مجموعة من المعتقدات والمشاكل التي توجد ضمن امكانات الأفراد وأن تفسيرهم للأحداث يتمشى مع تقويمهم لأنفسهم.

كما تعرّف أيضا بأنها فكرة الإنسان عن نفسه في علاقته مع البيئة، كما يتولى بدوره تحديد السلوك الذي يمارسه الشخص ومستواه، وينظر إلى الذاتية على أنها وجهة نظر شخصية يحكمها الميول والعواطف والقيم، فهي كذلك نظام من الإتجاهات والمشاعر والادراكات التي يمتلكها الفرد نحو نفسه فمفهوم الذاتية مرتبط بمجموعة المشاعر والعمليات التأملية التي يستدّل عنها من خلال سلوك ما، وإنّ وعي الشخص الشعوري وتفكيره بتأكيد أساليب التوجيه والتنظيم والتحكم بمستوى الآداء والفعل لديه. فحينما يصدر المتكلم حكما فهو بذلك يعبر عن مشاعره وأفكاره الخاصة إزاء عمل أو فكرة، ويكون رأيه سواء أكان سلبا أو إيجابا انعكاسا للتقييم النقدي تجاه الشيء المعروض لديه.

كما نجد مفهوم الذاتية شائع في النقد العربي، حيث ظل هذا المفهوم مرتبطا بصفة خاصة بالشعر العربي وبمختلف مواضيعه وأغراضه، حيث نجد الذاتية في غرض الفخر، والوصف، الغزل وغيرها، كما تظهر كذلك من خلال التعبير عن المعاناة والحرمان وذلك في شعر الاتجاه الذاتي وبالتالي فهي نقيض الموضوعية.

أمّا الذاتية في الدرس التداولي فهي تختلف عن المفهوم الكلاسيكي الشائع، ويقصد بها في هذا الإطار أنها «قدرة المتكلم على فرض نفسه في الخطاب على أنه الفاعل».[1]

1- Emile Beveniste, Preblémes de linguistique générale,Tome1, Gallimaed, Cérés Edition,Tunis.p.259.

ويعتبر اللّساني الفرنسي "اميل بنفنيست" (Emile Beveniste) المؤسس الفعلي لمفهوم الذاتية أو الفاعلية، من منظور اللّسانيات التداولية الذي يعد أحد أعلامها. والذاتية عند "بنفنيست" مرتبطة بعملية التلفظ (Enonciation)، أي أنها تتحدّد أثناء عملية الكلام أو الخطاب، والظروف المحيطية بذلك، والتي تسمى في تحليل الخطاب بـ "ظروف انتاج الخطاب Conditions de Production de discours"، على غرار زمن ومكان الخطاب وشخصية المتكلم والمتلقي ومختلف الخلفيات الثقافية والاجتماعية وغيرها.

فالذاتية هي مجموع الآثار اللّسانية التي يتركها المتكلم في خطابه، والتي تشير إلى شخصه باعتباره الفاعل ويقول "مانغونو" «أنه لا نكاد نجد نصا يخلو من أثر يتركه الشخص المتكلم، هذا الأخير الذي يترك أثرا يدّل على وجوده بصورة دائمة ومستمرّة، إلاّ أن هذا الوجود أو الحضور قد يكون واضحا أو غير واضح بشكل جيد»[1] فالمتكلم يسجل دائما حضوره في الخطاب، حتى وإن كان هذا الحضور غير مرئي بصورة جيدة.

ويرى "بنفنيست" أن الذاتية لا تحيل على الكلام أو الخطاب الذي يحوي مضمون ما (وصف, فكرة، خبر....الخ) وإنّما تحيل أيضا على هوية المتكلم والبحث في الذاتية هو البحث عن الأثر الذي يتركه المتكلم في الخطاب، بمعنى جميع العناصر اللّسانية والدّلالية التي تحيل إلى شخصية المتكلم.

وباعتبار "بنفنيست" المؤسس الفعلي لمفهوم الذاتية، فقد حدّد مجموعة من العناصر التي تحتوي عليها الذاتية منها الضمائر، أسماء الإشارة، ظرف المكان والزمان والنعوت وغيرها، إلاّ أنه يعطي لقضية الضمائر أهمية كبيرة، ويرى أن الذاتية تتمحور حول هذه القضية ويقول: «إن اللّغة التي لا تمتلك عناصر تحيل على شخص فهي لغة غير مفهومة، وإن كانت بعض اللّغات قد تستغني في بعض السياقات عن الضمائر التي تشير إلى أشخاص، ولغات شعوب الشرق الأقصى التي تستعمل عبارات وكنايات جاهزة تحيل في حدّ ذاتها إلى وجود الضمائر ولكن بشكل ضمني، فهي بذلك تستغني كليا عن الضمائر».[2]

1- Maingueneau, Les termes clés de l'analyse du discours .p.78.

2- Beveniste, Preblèmes de linguistique générale.p.261.

بالإضافة إلى مجهودات "بنفنيست" نجد مجهودات "أوريكيوني" التي اقتفت خطى "بنفنيست" في البحث عن الذاتية في اللّغة، فقد قسمت عناصر الذاتية إلى قسمين تندرج تحت كل قسم منها عناصر فرعية مختلفة وهي الإشاريات Déictiques والذاتيات Subjectivémes وسنحاول أن ندرس هذه العناصر بنوع من التفصيل في العنصر التالي.

2- عناصر الذاتية:

1-الإشاريات: Déictiques

لقد اهتم بها العلماء قديما من خلال أدوات الربط بين أجزاء الجملة، وبين مجموعة من الجمل، واهتمامهم ببعض الجوانب الصرفية والنحوية والدّلالية، ليهتم بها حديثا علماء التداولية، حيث اعتبروا أن الخطاب يتألف من عدد من العناصر تقيم فيها شبكة من العلاقات الداخلية التي تعمل على ايجاد نوع من الانسجام بين تلك العناصر، وتسهم الروابط التركيبية والإحالية والزمانية في تحقيقها وهي ظواهر لغوية ترتبط مباشرة بالعملية التبليغية في الخطاب، وتتجلى خصوصيتها التبليغية في الاختلاف في ادراك مرجعيات الخطاب، فهي لا تشير إلى شيء ثابت في العالم ولا إلى أوضاع موضوعية في المكان والزمان، وإنما تحيل دائما إلى حالة الخطاب الذي ترد فيه، فهي من أهم العناصر اللّغوية التي يتحدد معناها في اطار المقام.

فالإشاريات مصطلح يستعمل لوصف إحدى أهم الأشياء التي نقوم بها أثناء الكلام، وهي تعني الإشارة من خلال اللّغة وذلك بوجود كل من متكلم ومستمع يتشاركان في السياق ذاته.[1]

وقد نظر للإشاريات اللّساني رومان ياكبسون، وربطها بمفهوم واصلات الخطاب، حيث تشير إلى وجود المتكلم والمخاطب بالرجوع إلى سياق الكلام، وقد صنفها ياكبسون ضمن الوظائف اللّغوية الستة المعروفة للتواصل اللّغوي، حيث يرى أن أساس كل تواصل هو تحديد المرجع أو السياق الذي يحيل عليه خطاب المتكلمين، وعليه فإن فك شفرات الإشاريات يقتضي وجود المتكلم في زمان ومكان الخطاب.

1- ينظر : جورج يول، التداولية، ترجمة قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، لبنان 2010. ص27.

وبذلك فالإشاريات هو «ما أطلق عليها ياكبسون (Shifters) وهي تلك الوحدات اللّسانية وظيفتها دلالية مرجعية Sematico referentiel، تأخذ بعين الاعتبار العناصر المكوّنة للموقف التواصلي لمعرفة الدور الذي يؤدّيه فاعلو الخطاب، والوضعية الزمكانية Spatio temporelle للمتكلم والمخاطب»[1] فهي تعني بمدى ظهور المخاطب والوضعية الزمانية والمكانية في الخطاب وذلك بتتبع العناصر الإشارية المتمثلة في الضمائر بأنواعها المختلفة وأسماء الإشارة وظرف المكان والزمان،....وغيرها. فهي بذلك جزء مهم في اللّغة لأنها تلعب دورا كبيرا في تحقيق العملية التواصلية، إلاّ أنها تبقى مبهمة وغامضة ما لم تأخذ بعين الاعتبار السياق الذي وردت فيه, فهي «العلامات اللّغوية التي لا يتحدد مرجعها إلاّ في سياق الخطاب التداولي، لأنها خالية من أي معنى في ذاتها، فالبرغم من ارتباطها بمرجع، إلاّ أنه مرجع غير ثابت».[2]

فالبرغم من أن الإشاريات مرتبطة بالمرجع الذي تحيل إليه في الخطاب المتلفظ به، إلاّ أن هذا المرجع يتصف بعدم الثبات لأنه يتغير حسب السياق الذي ورد فيه، إذ لا بّد أن يكون لكل كلمة مدلول تحيل عليه في الخطاب، غير أن بعضا منها يوجد في المعجم الذهني للمتكلمين دون ارتباطها بمدلول ثابت، فمدلولها مرتبط بالسياق الذي ورد فيه لأن معناها يتغير تبعا لتغير الخطاب.

وبهذا فالإشاريات عامل مهم في تكوين بنية الخطاب من خلال القيام بدورها النحوي ووظيفتها الدّلالية «ويستثمر المرسل هذه الصفات في الخطاب الذي يجري بينه وبين المرسل إليه، عندما يمدّه في نسيج يتجاوز في كليته الجملة الواحدة، فتصبح فائدتها الإحالة إلى المعلومات القديمة التي تلفظ بها أحدهم، والتي أصبحت جزءا من المعلومات المشتركة».[3] فهي تساعد المرسل للوصول إلى المعلومات القديمة المشتركة بينه وبين المرسل إليه وذلك عن طريق الإحالة إليها.

1- Kerbrat-Orecchioni, L'enonciation de la subjectivité dans le langage,Armand Collin,Paris 1999.p.41.

2- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص80.

3- المرجع نفسه، ص81.

ولا يتوقف دور الإشاريات في السياق التداولي عند الإشاريات الظاهرة بل يتجاوز إلى الإشاريات ذات الحضور الأقوى، فالمتكلم يتلفظ بسمات معينة وفي مكان وزمان معينين، فتجتمع في الخطاب ثلاث إشاريات على الأقل وهي الأنا، الهنا، الآن وعليه تكون الإشاريات هي تلك العناصر الاحالية التي ترتبط بسياق المتكلم مع مراعاة البعد والقرب في التعابير الإشارية للمتكلم.(1)

وللإشاريات أنواع حسب تصنيف "أوريكيوني" فنجد الضمائر، أسماء الاشارة، ظرف الزمان وظرف المكان وألفاظ القرابة.

1-الضمائر:

سنتطرق أوّلا إلى مفهوم الضمائر عند "العرب" بعدها إلى مفهومها عند الغرب وفي التحليل التداولي.

تدّل الضمائر عند العرب على معنيين معنى التخفي والاستتار «والإضمار بمعنى الاستتار ليس سوى علامات يشار بها إلى مالم يصرّح بذكره، وهو بهذا قريب من معنى الحذف، إنه بوجود ظاهرة الحذف في اللّغة يكون المتكلمون مجبرين على اكتساب قدرة الإشارة إلى الأشياء التي تدخل ضمن الحديث الشفوي المكتوب»(2)

فالمعنى اللّغوي للفظة الضمير تعني التخفي والإضمار وقد تعني أيضا الحذف وهذا ما يجبر المتكلم على اكتساب قدرة معرفة الأشياء المتحدث عنها في الخطاب أما في الاصطلاح فالضمير «اسم جامد يدّل على متكلم، أو مخاطب، أو غائب، ولا يثنى ولا يجمع، ويدّل بذاته على الفرد المذكر أو المؤنث، والمثنى المذكر والمؤنث، أو على جمع المذكر وجمع المؤنث، ويمكن أن يقع في أوّل الجملة ويبتدئ به الكلام، وقد يسبق العامل ويستقل بنفسه»(3)

1- ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص81.

2-ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، (دط)، (دت)، ص96.

3-محمد مطرجي، النحو وتطبيقاته، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، بيروت 2000. ص60.

وبالتالي فالضمائر تشمل على ثلاثة أنواع، ضمائر المتكلم، ضمائر المخاطب، وضمائر الغائب، يمكن أن يأتي في أوّل الجملة، وقد يسبق العامل وبالتالي يكون مستقلا بنفسه، إلاّ أن هذه الضمائر لا تخلو من اللبس والغموض في دلالتها «لأن معنى الضمير وظيفي وهو الحاضر أو الغائب على اطلاقهما، فلا يدل دلالة معجمية إلا بضميمة المرجع، وبواسطة هذا المرجع يمكن أن يدّل على معين، وتقدّم هذا المرجع لفظا أو رتبة أو هما معا ضروري للوصول إلى هذه الدلالة»(1). فدلالة الضمائر لا تتحقق إلاّ بوجود مرجع تحيل إليها فالمتكلم والمخاطب يفسّرهما وجود صاحبهما وقت الخطاب، بينما تحديد المرجع في ضمائر الغياب صعب لأن صاحبه غير معروف.

وقد أطلق النحاة القدامى على الضمائر اسم المبهمات وذلك «لأنك تشيربها إلى كل ما بحضرتك، وقد يكون بحضرتك أشياء فتلبس على المخاطب، فلم يدر إلى أيهما تشير فكانت مبهمة، لذلك لزمت البيان بالصفة عند الالتباس، ومعنى الإشارة الايماء إلى حاضر بجارحه، أو ما يقوم مقام الجارحة، فيتعرف بذلك، فتعريف الإشارة أن تخصص للمخاطب شخصا يعرفه بحاسة البصر»(2). فالمبهم لا يتضح معناه إلاّ من خلال التلفظ بالكلام، والاشارة إلى الشخص الذي يعرفه المخاطب بعينه أي بالمشاهدة وضمائر المتكلم والمخاطب تعرف بأنها ضمائر الحضور لأنها تفسر بوجود أو بحضور صاحبها لحظة الخطاب، فالمتكلم "أنا" و "نحن" يكون حاضرا بنفسه، أو حاضرا يكلمه غيره "أنت" وقت الخطاب، فالمعروف «أن ضمير المتكلمين "أنا" و "نحن" تدل على أن المتكلم أكثر من واحد، أو واحد معظم بنفسه»(3) "فأنا" يعتبر من أكثر العناصر الإشارية التي تعبر عن الذاتية في اللّغة، فله القدرة على امتلاك السلطة بالخطاب بمجرّد النطق به، "فأنا" هي نطق المتكلم "بأنا" في حال الخطاب.

وممارسة التلفظ هي التي تدل على المرسل في بنية الخطاب العميقة، مما يجعل حضور "الأنا" يرد في كل خطاب «ولهذا فالمرسل لا يضمنها خطابه شكلا في كل لحظة، لأنّه يقوم على وجودها بالقوة، في كفاءة المرسل إليه، وهذا ما يساعده على استحضارها لتأويل الخطاب تأويلا

1-حسان تمام، اللّغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1979. ص111.
2-ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، ج3، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان 2001. ص221.
3- محمد مطرجي، النحو وتطبيقاته، ص 60-61.

مناسبا فأعرف المضمرات المتكلم لأنه لا يوهمك غيره ثم المخاطب تلو المتكلم في الحضور والمشاهدة».[1]

كذلك الضمير "نحن" يعتبر من العناصر الإشارية التي تدّل على المتكلم الحاضر لأن ضمائر المخاطب والمتكلم تستوجب حضور صاحبها أثناء النطق بها، فاستعمالها دليل على استحضار المتلقي سواء دلّ على الجمع أو تعظيم المفرد.

ولا يتلفظ المرسل بضمير المتكلم ابتداءا في خطابه، خصوصا عند اجتماعه بالمرسل إليه «لأن ضمير المتكلم وضمير المخاطب تفسرهما المشاهدة ولا يتلفظ به إلاّ عند افتراضه أي افتراض مسبق، أو عند حاجته لتنويع فعله اللّغوي في الخطابات المبدوءة ب "نحن" مثلا يشير الضمير إلى بعد ثقافي بإحالته لغويا على الجمع رغم أن المرسل مفرد، وهذا التفاوت بين المرجعين الحقيقي والثقافي هو ما لا تختزنه كفاءة المرسل إليه، للربط بين الضمير "نحن" ومرجعه المفرد»[2] ويمكن استعمال الضمير "نحن" في التداولية للتعبير عن التضامن أي تضامن المرسل إليه فيما بينهما، أي الجمع بين "أنا" و"أنتم" في الخطاب.

أما ضمير المخاطب "أنت" فلا يتوقف استعماله في السياق عند الاحالة على المرجع فقط بل يتجاوز ذلك فيصبح مؤشرا على غرض تداولي، وهو التعاون بين الأطراف في الخطاب وهذا ما يوصف «بأنت التعاونية وعليه فإنه يتوفر للمرسل عند التفاعل ثلاثة نماذج من الاستعمال المختلف، فيشير استعمال أنت إلى أن المشاركين في الخطاب يعتبرون أنفسهم ذوي علاقة حميمية من الناحية الاجتماعية، ويمكن تعريف الحميمية بأنها التعبير عن القيم المشتركة والقرابة والجنس والجنسية والموقع الوظيفي وتكرار التواصل».[3] ويراد "بأنت" التعاونية اللّفظة التي يستعملها المتكلم في مخاطبة الآخر، وهي مؤشر على العلاقة الحميمية، والتقرّب الاجتماعي بين الطرفين، في حين تستعمل أنتم عندما لا يعتبر الطرفان أنفسهم ذوي علاقة حميمية اجتماعيا أي كل طرف غريب عن الآخر، فتستعمل كمؤشر على الاحترام والبعد الاجتماعي.

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص82.

2- المرجع نفسه، ص83.

3- نفسه، ص288.

وضمير الغائب "هو" صاحبه غير معروف أي أنه غير حاضر ولا مشاهد، فلا بدّ لهذا الضمير من شيء يفسّره، ويوضح المقصود منه.

بينما الضمائر المتصلة هي الضمائر التي يستعين بها المتكلم في السياق لتعويض الضمائر الأخرى المنفصلة، فهناك العديد من الأحرف والضمائر التي يمكن للمتكلم أن يستعملها كبدائل عن الضمائر الأخرى، فيستعمل "نا" مثلا كبديل عن الضمير "نحن"، فهو يتصل بالأفعال المضارعة ليدّل على التضامن نيابة عن الضمير "نحن"، كذلك يستعمل المرسل حروف الكاف مع الميم للدّلالة على المخاطب الجمع، كما يستعمل الكاف الدّال على المخاطب المفرد سواء المذكر أو المؤنث.

أمّا ضمير الشأن ويسمّى كذلك ضمير الحال أو الضمير المجهول، وهو من الأدوات الإشارية كذلك ويعرف بأن العرب «إذا أرادو ذكر جملة من الجمل الاسمية أو الفعلية، فقد يقدّمون قبلها ضميرا يكون كناية عن تلك الجملة وتكون الجملة خبرا عن ذلك الضمير وتفسيرا له, ويوحدون الضمير لأنهم يريدون الأمر والحديث، لأن كل جملة شأن وحديث، ولا يفعلون ذلك إلاّ في مواضع التفخيم والتعظيم». (1)

وقد سمي بضمير الشأن لأنه يرمز إلى الحال المقصود الكلام عنها، فالعرب إذا أرادوا ذكر جملة اسمية كانت أو فعلية يقدمون قبلها ضمير الشأن، وهذا يكون كناية عن الجملة المراد ذكرها في الكلام، وقد تكون خبرا لها أو تفسيرا.

هذا عن الضمائر عند العرب أمّا عند الغرب فالضمائر تعتبر ظواهر لسانية تساهم في انجاز العملية التخاطبية التواصلية، فإنها في هذه الحالة ستصبح فواعل نحوية، إذا تم عزلها عن مرجعيتها التي تمنحها بعدها التداولي داخل الخطاب، لذا فإن أي اشارة تتطلب البحث في مرجعيتها إذ مجرّد التلفظ بهذه العناصر تكون العملية التواصلية حينها، قد أخذت بعدا تداوليا، كما يوجد بين المتخاطبين من خبرات خاصة تحيل على الأبعاد الاجتماعية والثقافية التي تعتبر قواسم مشتركة بينها، وهذا ما يفسر قول التداوليين أن المبهمات لا تحيل على أشياء موضوعية في العالم

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص302.

أو الزمان والمكان، بقدر ما تحيل على الخطاب ذاته، وتكون خارج هذا الاطار فارغة من أي دلالة.

وقد أعطى " بنفنيست" أهمية كبيرة لقضية الضمائر فهي «تشكل نقاط الإرتكاز الأولى لخلق الذاتية في اللغة، ويضاف إلى هذه الضمائر أنواع أخرى من الأسماء المعوضة كأسماء الإشارة والأحوال والنعوت التي تنتظم علاقات المكانية والزمانية حول الفاعل بوصفه محورا أساسيا، من أمثلة ذلك: هذا، ذلك، هنا، الآن وأدوات أخرى قريبة مثل ذلك، أمس، العام الماضي، غدا...الخ وهي تشترك في أن مدلولاتها مرتبطة بسياق الكلام الذي استعملت فيه»(1).

وتتشكل بذلك الضمائر عند "بنفنيست" الحجر الأساس في وضع الذاتية في اللغة, فالبرغم من وجود عناصر أخرى تحيل إلى الذاتية على غرار أسماء الإشارة وأسماء المكان والزمان، إلا أنه يعتبر الضمائر أساس العملية التبليغية.

كما يرى "بنفنيست" أيضا أن اللغة «وضعت تحت تصرف مستعمليها أشكالا فارغة، تمكن من الإحالة إلى نفسه في أي وقت اقتضت الحاجة لذلك، وهذه الأشكال الفارغة تجد لنفسها مضامين بمجرّد أن يتلفظ بها المتكلم ضمن حالة الخطاب»(2).

فالضمائر مادة فارغة من أي مفهوم ومضمون مادامت لم تدخل في السياق، إلا أن هذه الصيغ تجد لنفسها مضامين انطلاقا من لحظة التلفظ بها، فكل متكلم يمتلك الكلام كليا عندما يعين نفسه على رأس العملية التخاطبية، و يشير إلى نفسه بقوله "أنا".

وتعارض "أوريكيوني" فكرة الأشكال الفارغة بقولها «يمكن ألا يكون للضمائر موضوع لكنه من المستحيل ألا يكون لهما مفهوم، فلولا الضمير لستحالت الترجمة من لغة إلى أخرى»(3) فهي أشكال فارغة في حقيقتها من الناحية المرجعية، أما من الناحية الدلالية فهي غير ذلك، إلا أن الضمائر تفقد مرجعيتها في الواقع، لكنها تبقى أشكالا دالة، حيث يحمل كل ضمير دلالة معينة، حين اشارة كل شخص إلى نفسه أثناء الكلام.

1- Beveniste, Preblèmes de linguistique générale.p.262.

2- Ibid,p.263.

3- Kerbrat-Orecchioni, L'enonciation de la subjectivité dans le langage.p.49.

ويضيف "بنفنيست" أن ضمير المتكلم "je" لا يعتبر المؤشر الوحيد على و جود الذاتية في اللغة، بل يرى أن الضمير "tu" هو أيضا دليل على الذاتية، حيث أنه لا وجود ل "أنت" بدون "أنا" لأنه «لا يتحدد وضع الذات إلا من خلال و ضعها في مقابل الآخر، فأنا لا استعمل "أنا" إلا عندما أتوجه بالحديث إلى شخص آخر يكون هو "أنت" و هذا الحوار بين "je" و "tu" هو الذي يؤسس لمفهوم الضمير، لأنه يستدعي أن أصبح "أنت" في كلام يتحول بدوره إلى "أنا"».[1]

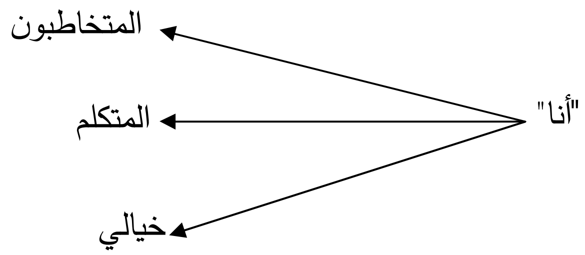
وعليه يتشكل الخطاب بين "أنا" و "أنت" وبالتالي تتحقق الذاتية في اللّغة، واستعمالها يعني الحديث عن الضمائر التي تلعب دور تحويل اللغة إلى نشاط فردي من خلال الإستعمال، بحيث إن امتلك المتكلم سلطة الكلام و يتحكم فيه، فهو بذلك يجعله من إمكانياته، وينصب نفسه في درجة عالية ضمن العملية التواصلية، ولا يتحدث لشخص حاضر أمامه، يقول "مانغونو": «عند استعمال "أنا" و "أنت" ... فكل متكلم يرجع نظام اللغة لفائدته ف "أنا و "أنت" ليسا علامات لغوية لنمط خاص من المبهمات (الضمائر) إنها قبل كل شيء عوامل تحويل اللغة إلى خطاب».[2]

إن من خلال استعمال الضميرين "أنا" و "أنت" في حال الخطاب، يكون المتكلم باستخدامه الضمير "أنا" غير مجبر على ذكر اسمه، واستخدامه للضمير "أنت" يجعله لا يذكر اسم المخاطب، وهذا في جميع اللّغات، وهذا ما يسمى بالإقتصاد اللّغوي، أي عناصر صغيرة تؤدي معنا معينا، وتوظيفها يختلف من فترة إلى أخرى فقد تحيل "أنا" إلى شخصية المتكلم نفسه فمثلا أنا أتألم، فصفة الألم لا أنسبها إلا لنفسي، وقد تحيل "أنا" على المتخاطبين وأناس آخرين، فيمكن أن أتحدث لكن بإسم آخرين قصد تمثيلهم، كما قد تحيل "أنا" على المتكلم الذي يتخذ ازاء شيء ما مسافة، أي بعدا مثل موقع الراوي الخيالي، كالتخيل في الأدب.[3]

1- Beveniste, Preblémes de linguistique générale.p.260.

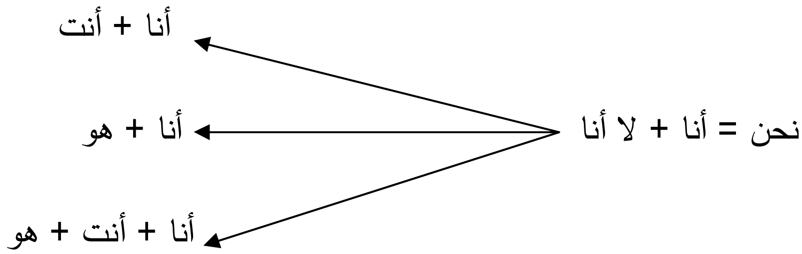
2- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص97 نقلا عن: D. Maingueneau, Approche de l’enonciation p.34.

3-ينظر : ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب ، ص100.

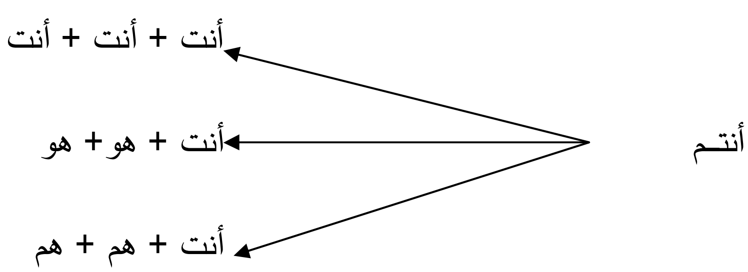


فمرجع الضمير "أنا" هو الذي يقول "أنا" في حال الحديث، يشير إلى نفسه كما يستعمل للتعبير عن الجماعة، كما يستعمل كذلك في الشعر أو التخيل في الأدب وإذا كان "أنا" يطابق "نحن" في الخطاب حسب رأي "بنفسيت" فإن أوريكيوني تقول في هذا الإطار:«"نحن" لا يتطابق أبدا مع "أنا" الجمع إلا في حالات شاذة كالشعر والكتابة الجماعية». (1)

"فنحن" حسب أوريكيوني يعبر عن "أنا" وعن "لا أنا"، ويعني هذا الأخير "أنا" و "أنت" و"هو"، "أنا" و "أنت"، "أنا" و "هو" ... و تمثلها أوريكيوني في هذه الترسيمة(2):



كذلك بالنسبة للضمير "أنتم" التي توظف في الغالب للتعبير عن الإحترام، فهي لا تشكل الجمع بين "أنا" و"أنت"، "أنتم" و "نحن" أشخاص ذوي مرتبة اجتماعية وثقافية عالية فنحن يعني أنا وآخرون، فإذا أشرنا إلى متعلم ب"أنتم" فهذا لا يعني أنها جمع لعدة عناصر وأنما احتراما وتقديرا للمتلقي.



Kerbrat-Orecchioni, L'enonciation de la subjectivité dans le langage.p.46.-1

Ibid,p.46.-2

أما ضمير الغائب فقد ابعد عنه "بنفنيست" صفة الإبهامية، لأنه لا يحيل إلى شيء موضوعي في الواقع فهو كما يقول «يجب أن ننتبه إلى ضمير الغائب فهو الشكل الفارغ الذي يحيل على إنسان، لأنه ضمير يحيل على شيء واقع خارج الخطاب ولكنه ضمير يوجد في تقابل مع ضمير المتكلم "أنا" الذي ينطلق به بوصفه "غير شخص" non personne، لكنه يعتبر جزءا من الخطاب الذي يتلفظ به "أنا" ويتخذ قيمته منه».[1]

فميزة الضمير الغائب أنه يبتعد عن الإبهام، فهو يوصف بأنه لا شخص إلا أنه لا يمكن للضمير أن يعبر عن غير شخص إلا إذا أراد المتكلم ذلك تقول "أوريكيوني" «إن القول بأن الضمير "هو" تكمن وظيفته في التعبير عن لا شخص، غير صحيح، إنما ذلك في بعض الأساليب التي يرغب فيها المتكلم تحديد طبيعتها»، فـ "هو" لا يختلف عن "أنا" و "أنت" ولا يمكن تحديد مرجعيته إلا من خلال السياق، الذي يحدد وظيفته ووظيفة جميع الضمائر الأخرى ويقدم لها مدلولاتها من خلال الخطاب.[2]

2- أسماء الإشارة:

تعرّف الإشارة بأن «تخصص للمخاطب شخصا يعرفه بحاسة البصر، وسائر المعارف أي أن تخص المتكلم شخصا يعرفه المخاطب بقلبه، فلذلك قال النحويون أن أسماء الإشارة تعرف بشيئين العين والقلب».[3] يوضح هذا التعريف أن المشار إليه يمكن أن يكون شيئا محسوسا مثل جسم إنساني، أو يكون معنويا كالتحدث عن مسألة تختلج في صدر صاحبها كالحزن و الصبر مثلا.

1- Beveniste, Preblèmes de linguistique générale .p.265 .

2- Kerbrat-Orecchioni, L’enonciation de la subjectivité dans le langage.p.49.

3- ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، ص126.

ويطلق النحاة على أسماء الإشارة إسما خاصا و هو الأسماء المبهمة وهي: «ما دل على مسمّى، وإشارة إلى ذلك المسمّى، نقول مشيرا إلى زيد مثلا (هذا) فتدل لفظة (هذا) على ذات زيد، وعلى الإشارة لتلك الذات»[1] فهي بذلك تدّل على استحضار الذوات أثناء الخطاب.

فاسم الإشارة هو الإسم الذي عين مدلوله معينا مقرونا بإشارة حسية أو معنوية إليه، وبعبارة أخرى هو كلمة تشير إلى شخص أو شيء معين بواسطة إشارة حسية باليد أو نحوها، إذا كان المشار إليه حاضرا أو مرئيا، أو بإشارة معنوية، إذا كان المشار إليه معنى أو ذاتا غير حاضرة وتقول "أوريكيوني": «إنها السماء التي لا يمكن تحديد مرجعيتها إلا من خلال السياق اللّغوي، فهي مرتبطة بالمقام التواصلي».[2]

تنقسم أسماء الإشارة حسب المشار إلى قسمين: قسم يقوم على معرفة المشار إليه من حيث كونه مفردا أو مثنى أو جمعا، مع مراعاة التذكير و التأنيث و العقل و عدمه في كل ذلك، فأسماء الإشارة الخاصة بالمفرد المذكر وما في حكمه هي ذا، ذاء، ذائه، ذاؤه، ذلك، وذلك، وكذلك المفرد المؤنث وما في حكمه وتبدأ بالذال وهي ذي، ذه، ذات... ومنها ما يبدأ بالتاء نحو: تي، تا، ته، ويلخصها إبن يعيش في هذا القول:«ذا للمذكر ومثناه، ذان في الرفع وذين في النصب والجر، ويجيء ذان فيهما في بعض اللّغات ومنه قوله تعالى:"إن هذان لساحران" و تأتي ته وذه وذة بالوصل و بالسكون و ذي للمؤنث و لمثناه تان وتين ولم يثن من لغاته إلا نا وحده، ولجمعهما جميعا أولاء بالقصر والمد مستويا في ذلك أو لو العلم».[3]

إن ما يشار به للمفرد المذكر دائما هو (ذا)، سواء كان المشار إليه عاقلا أم غير عاقل، وما يشار به للمفرد المؤنث هو ذي، ذه، نا، وتلحقها هاء التنبيه غالبا فيقال هذه، هاته، هات، هاتي وعليه فإن إسم الإشارة «قد يعود على أشياء متعددة بلفظ المذكر المؤنث(...) كما يعود على الأشياء المتعددة بلفظ المفرد المذكر على تأويل المذكور، فكما أن الضمير قد يعود على المفهوم

1- أحمد محمد عبد الراضي، القضايا الصرفية والنحوية في حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد، دراسة تحليلية في ضوء دلالة النص، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، بور سعيد، القاهرة 2007. ص99.

2- Kerbrat- Orecchioni, L'enonciation de la subjectivité dans le langage.p.50.

3- ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، ص126.

من السياق، فكذلك اسم الإشارة قد يشار به إلى ما دل عليه كلام سابق، و حينئذ يؤول بالمذكور حتى تتحقق المطابقة بين المشار إليه واسم الإشارة ».[1]

هذا بالنسبة لأسماء الإشارة التي ينظر فيها للمشار إليه من زاوية التذكير والتأنيث والأفراد و الجمع، أما فيما يخص أسماء الإشارة التي ينظر إليها من زاوية قرب المشار إليه أو بعده، أو توسطه بين القرب و البعد، تنقسم إلى ثلاثة أقسام و هي:

1- الأسماء المستعملة الدلالة على القرب:

وتشمل جميع الأسماء التي تستعمل للدلالة على المفرد، سواء المذكر أو المؤنث، وكذلك المثنى والجمع.

2- الأسماء المستعملة للدلالة على التوسط بين القرب و البعد: تشمل «الأسماء الدالة على القرب بشرط زيادة كاف الخطاب الحرفية في آخر الاسم للدلالة على المتوسط، بشرط أن كاف الخطاب لا تزاد في آخر اسم الإشارة الخاصة بالمفردة المؤنثة إلا في ثلاثة : تي، تا، ذي».[2]

فأسماء الإشارة الدالة على التوسط بين القرب و البعد تكون بزيادة كاف الخطاب في اسم الإشارة، بشرط أن كاف الخطاب لا تلحق اسم الإشارة المؤنث باستثناء تي، تا، ذي، فنقول في حال التوسط تيك، تاك، ذيك، أمّا ذه، وته، فلا تلحقهما كاف الخطاب، فهي تستعمل للدلالة على القرب فقط.

3- الأسماء الدّالة على البعد:

وتكون بزيادة حرفين على اسم الإشارة أوّلهما على الترتيب لام البعد وكاف الخطاب الحرفية، ويمتنع زيادة لام البعد في آخر الأسماء الخالية من كاف الخطاب، فنقول على سبيل المثال: أولاء عند الإشارة بها إلى البعيد فلا يمكن أن نقول أولالك بل نقول أولائك.

1- أحمد محمد عبد الراضي، القضايا الصرفية والنحوية، ص102.

2- حسن عباس، النحو الوافي، ج1، دار المعارف، ط5، كورنيش النيل، القاهرة 2004. ص 309.

بالإضافة إلى الأسماء المذكورة، هناك أسماء إشارة مختصة بالمكان و هي: هنا وههنا للدلالة على المكان القريب، هناك للدلالة على المكان المتوسط، هنالك للدلالة على المكان البعيد ومثلها ثم وثمّة.

وتعتبر هذه الأسماء من الإشاريات أو المبهمات لأنها تعتمد في تفسيرها وتحديد مدلولاتها على متكلم وسامع يتشاركان في السياق ذاته، لذا أولته التداولية اهتماما بالغا في تحليلها للخطاب.

3- ظرف الزمان أو الإشاريات الزمنية:

إن المفهوم الشائع لكلمة "زمان" هو ما يذكر في الكلام لبيان زمن الحدث، ولحظة وقوعه وبالتالي فالإشاريات الزمنية هي كلمات تدل على زمن يحدده السياق بالقياس إلى زمن التكلم، فزمن التكلم هو مركز الإشارة الزمنية في الكلام، فإذا لم يعرف زمن التكلم التبس الأمر على الملتقي أو سامع الخطاب، وتقول "أوريكيوني" «التعبير عن الزمن، هو حصر حدث ما في مدار الزمن بالنسبة لوقت معين، مأخوذة كمرجع، وهذا الزمن يمكنه أن يقابل تاريخا معينا باعتماده مرجعا نظرا لأهمية التاريخية في حضارة معينة»[1]، للزمن علاقة وطيدة بالسياق فلفك شفرات الإشاريات الزمانية وجب الرجوع إلى السياق وكذلك الأخذ بزمن التكلم فلحظة التلفظ هي:«المرجع ولهذا يجب أن نربط الزمن بالفعل ربطا قويا في مرحلة أولى، ونربط كذلك بين الفعل ولفاعل لأهميته الكبرى، في مرحلة ثانية»[2] فلتحديد مرجع هذه الكلمات وجب على المتكلم ادراك لحظة التلفظ، ويجعلها مرجعا بحيل عليه.

يميز "بنفنيست" بين ثلاثة أقسام من الأزمنة وذلك بالإعتماد على علاقة المتكلم بالزمن فميز بين الزمن الطبيعي وهو الزمن الذي يعيشه ويحسه الإنسان في حياتة فهو زمن استمراري ومنظم، يتميز بالخطية و الآنهاية، والزمن التاريخي الذي يرتبط مباشرة بحياة الإنسان باعتبارها مجموعة متتابعة من الأحداث منذ الولادة إلى الوفاة، إذ يمكن للإنسان أن يتحول بفكره في اتجاهين متعاكسين من محور الزمن من الماضي إلى الحاضر والعكس عن طريق الذاكرة، وزمن الخطاب أو الزمن اللّغوي هو زمن التلفظ، وهو يتمحور في الحاضر الذي يشكل مرجعيته، أما الأزمنة

Kerbrat-Orecchioni, L’enonciation de la subjectivité dans le langage. p.51. -1

2- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص83.

الأخرى فتحديدها يتم من خلال علاقتها بالحاضر، يقول "بنفنيست": «كلما استعمل فيه المتكلم الصيغة النحوية الدالة على الحاضر جعل الحدث متزامنا لحال الخطاب».(1)

والتعبير عن الزمن في اللّغة يتم بواسطة الكلمات الدالة عليه أو ما يعرف بظروف الزمان التي تدعى أيضا بالمبهمات الزمنية، يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة وقت وزمان التكلم مثل أمس غدا، اليوم، الغد، السنة الماضية، الشهر القادم، الأيام المقبلة وغيرها، وقد حددّتها "أوريكيوني" وصنفتها حسب أزمنتها في هذا الجدول(2):

	اشاريات مرجع	اشاريات مرجع معبر عنه في السياق
التزامنية	في هذه اللحظة، الآن	في هذا الوقت، إذن
القبلية	أمس، اليوم السابق، الأسبوع الماضي، منذ ساعات قليلة	البارحة، الأسبوع الفارط، قبل، ساعات قليلة، قبل قليل
البعدية	غدا، السنة القادمة، في غضون يومين، قريبا، من اليوم فصاعدا	اليوم الموالي، السنة الموالية، بعد مرور يومين
الحيادية	اليوم، الاثنين الأقرب أو السابق أو الآّحق، هذا الصباح، بعد قليل	في يوم آخر

وعليه قسمت "أوريكيوني" الإشاريات الزمنية إلى أربعة أقسام وهي اشاريات تزامنية وهي كلمات تستعمل في الحاضر أي دلالتها مقترنة بالحاضر مثل الآن، في هذه اللّحظة، وإشاريات قبلية وهي الكلمات التي انتهى زمنها وفات، فهي تعبر عن حدث مضى مثل الأسبوع

Beveniste, Preblèmes de linguistique générale.p.73. -1

Kerbrat-Orecchioni, L'enonciation de la subjectivité dans le langage.p.53.-2

الماضي، أمس..الخ، وإشاريات بعدية وهي تعبر عن الزمن المستمر الذي لم ينقض بعد، كما أدرجت الإشاريات الحيادية وهي تعبر عن زمن غير محدّد أي بداية ونهاية غير محدّدة، وسميت حيادية لأنها تختلف عن الإشاريات الأخرى التزامنية القبلية والبعدية ومن خلال هذا التصنيف نجد أن الزمن الذي يتكلم فيه الشخص إشاريات مرجع تعود إلى لحظة التلفظ، بينما الإشاريات التي تعود إلى السياق فتفهم من خلال ربطها بسياق الحديث.

ويظهر أيضا من خلال هذه الأقسام أن الإشاريات الحيادية يصعب تحديد زمنها مقارنة بالاشاريات الزمنية الأخرى وهذا ما جعلها تلعب دورا بارزا في جعل المتكلم يوظف الأزمنة الثلاثة مثل:

اليوم كرهت حياتي

اليوم أنا كاره حياتي

اليوم سأكره حياتي

ففي الأمثلة الثلاثة يتضح أن للزمن الحاضر علاقة بالأزمنة الأخرى الماضي والمستقبل فهو منبعها الذي تواكبه هذه الأزمنة دون الرجوع إليها حقيقة، ففي هذه الصيغ الثلاثة نجد الحاضر مهيمنا عليها.(1)

فالزمن ينقسم إلى ثلاثة أقسام، الماضي الذي يسبق الزمن الذي نحن فيه، الحاضر وهو الزمن الذي يصادف الوجود، وزمن المستقبل، وهو الزمن الذي يلي الزمن الحاضر، فهذه الأزمنة الثلاثة يوظفها المتكلم في كلامه أثناء التخاطب، وتبقى النقطة الأساسية في تحديدها هو لحظة انتاج الخطاب.

والحاضر حسب "بنفنيست" هو الذي يجمع بين الماضي والمستقبل فهو جامع مشترك بينهما، فالمقياس الزمني للحاضر يكون داخل الخطاب، حيث يطابق الحاضر لحظة الخطاب أي الزمن الذي نتكلم فيه ويقول في هذا الإطار «أن المعجم العام عرّف الحاضر بكونه زمن الفعل الذي

1- ينظر: ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص 108.

يعبر عن الزمان الذي نحن فيه، ولكن من جهة أخرى علينا توخي الحذر لأنه لا يوجد معيار آخر لتحديد الزمن الذي نحن فيه، إلاّ إذا اعتبرناه الزمن الذي نتكلم فيه»[1]، فالحاضر ليس له معيار زمني، فهو تطابق الحدث مع لحظة الخطاب أو التكلم.

وتجدر الاشارة إلى أن العناصر الإشارية الزمنية قد تدّل على زمنين الزمن الكوني والزمن النحوي، أمّا الزمن الكوني يتم تقسيمه إلى فصول وسنوات وأشهر وأيام وساعات، بينما الزمن النحوي ينقسم إلى ماضي وحاضر ومستقبل، وقد يتطابقان وقد يختلفان، فقد يحدث أن يستعمل المتكلم زمن الحاضر للدّلالة على الماضي، وصيغة الماضي للدّلالة على المستقبل، وهنا قد يقع السامع في لبس لا يحلّه إلا المعرفة بسياق الكلام.[2]

وعلى العموم فإن الإشاريات الزمنية تشير إلى الذاتية من خلال نظام الأزمنة التي تميز لغة من اللّغات وهو قائم على التقسيم الثلاثي الماضي والحاضر والمستقبل، فالحاضر زمن مستقل بذاته، أما الماضي والحاضر فيتحدّدان بالنسبة اليه مع مراعاة مرجع الاشارة ولحظة الخطاب.

3-ظرف المكان أو الاشاريات المكانية:

عرّف المعجميون والمفسرون المكان بمعان متقاربة «فرأى بعضهم أن المكان يعني الموضع ورأى آخرون أن المكان موضع الكينونة، ورأى غيرهم أنه موضع الاستقرار»[3]، كما ربط البعض الآخر دلالة لقطة المكان بوجود الإنسان وكيانه، يقول فاروق أحمد سليم: «نحصل على لفظ يدّل دلالة عميقة على صيرورة الحياة الإنسانية فالمكان هو الموضع الذي يولد يحدث ويخلق ويوجد فيه الإنسان وهو الموضع الذي يستقر فيه، وهو الموضع الذي يعيش فيه، ويتطور فيه، إذ ينتقل من حال إلى آخر، وما ينطبق على تطور حياة الإنسان، ينطبق على حياة الجماعات والأمم»[4]

1- Beveniste, Preblèmes de linguistique générale.p.262.

2-ينظر : محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص53.

3- ناصر عقيل أحمد الزغول، اسما المكان والزمان في القرآن الكريم، دراسة صرفية دلالية، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع، ط1، اربد، الأردن 2006. ص09.

4- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، الأردن 2008. ص170.

وكثيرا ما قترنت مقولتا الزمان والمكان ببعضهما البعض، حيث كثيرا ما ذكرتا معا، فإذا كان تحديد الزمان مقترن بلحظة التكلم فإن دلالة المكان تتجلّى من خلال تلك النقطة في الفضاء الذي يتحقق فيه الكلام، فإذا قلنا محمد هناك في المدينة يشير إلى أن محمد موجود على مقربة أو بعيد عن المكان الذي يقف فيه المتكلم الناطق لتلك الجملة، ووضعية المتكلم أثناء الكلام هي التي تدله على البعد أو القرب أو الأمام أو الجهة أي أن تحديد المكان يساعد على اختيار العناصر التي تشير إليه سواء القرب أو البعد وغيره، يقول "مانغونو": «تتحدّد المبهمات المكانية بوضعية المتكلم: وضعيته الجسدية Position physique إضافة إلى إشاراته Gestes».[1]

ويصعب على الناطقين باللّغة أن يفسروا ألفاظا مثل: هنا، هناك، هذا وذاك وغيرها إلاّ إذا ماعرفوا ما تشير إليه بالعودة إلى مركز الإشارة إلى المكان واتجاه المتكلم، فهي مرتبطة بالسياق الذي قيلت فيه.

ومن بين الإشاريات المكانية البارزة نجد أسماء الاشارة المختصة بالمكان مثل هنا وهناك وهنالك... ومختلف أنواع ظروف المكان مثل أمام، فوق، تحت، شمال، وراء...كلها عناصر اشارية لا يتحدد معناها إلاّ بمعرفة وضعية وتوجيه المتكلم.

لذلك لا يمكن للمتكلم الاستغناء عن المكان عند تلفظه بالخطاب، وهذا ما يعطي الإشاريات المكانية مشروعية اسهامها في الخطاب فنجد «أنها تختص بتحديد المواقع بالانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام انطلاقا من الحقيقة القائلة، إن هناك طريقتان رئيسيتان للإشارة إلى الأشياء، هما إما بالتسمية أو الوصف من جهة أولى، وإما بتحديد أماكنها من جهة أخرى»[2]. إن معرفة الموقع يستوجب الوقوف بدقة على معرفة مكان التلفظ، واتجاه المتكلم ولا يكفي تحديد وضعية الأشياء التي نشير إليها ضمن موقع المتكلم وجهته فحسب، بل تتحدد أيضا ضمن أشياء تستعمل كمراجع مضافة في الخطاب فعندما نقول الكتاب فوق الطاولة فإذا استعملت لفظة "فوق" وحدها فإن معناها لا يستقيم، ولكن تحديده كان

1- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص113 نقلا عن: D. Maingueneau, Elements de linguistique pour le texte litteraire.p.15.

2- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص84.

باستخدام لفظة الطاولة، فمفهومه تحدّد من شيء آخر مضاف إليه في الخطاب وهو الطاولة، وكما يجب أن نشير كذلك إلى أن استعمال بعض الإشاريات المكانية تبقى غامضة حتى ولو أضيف إليها أشياء أخرى تحدّد دلالتها وذلك عندما نقول:

ضع قلمك خلف ذلك الكراس

فهذه الجملة يمكن أن تؤول على طريقتين عن يمين الكراس أو عن يمين الكراس أي: ضع قلمك خلف الكراس على يمينه

ضع قلمك خلف الكراس على يساره

لذلك على المتكلم أن يتحرى الدقة في استخدامه لمفهومي "اليمين" و "اليسار" فمثلا: نقول لشخص يرغب في أخذ صورة تذكارية: اجلس على يسار تلك الشجرة فاليسار بالنسبة للشجرة تمثل جانبي الأيسر، فاستعمال هذه الجملة مبهم وفيه نوع من اللبس، ولكن إذا قلنا، قف على يمين عمر، فهو استعمال غير مبهم لأن: اليمين هي الجهة المناسبة ليمين عمر، وليس يميني مهما كانت وضعيتي.[1].فمرجعية استعمال اشاريات المكان لا تكون بالنسبة للمتحدث، ولكن بالنسبة للمشار اليه الذي هو عمر في المثال المذكور.

وتحدّد "أوريكيوني" هذا الاستعمال بقولها: «"أ" خلف "ب" ففي هذه الحالة ينبغي أن يتواجد المتكلم في الجهة الخلفية بالنسبة ل "ب"، أما "أ" أمام "ب" فهذه الحالة ينبغي أن يأخذ المتكلم بعين الاعتبار وضعيته الخاصة»[2]، فينبغي على المتكلم أن يتخذ موقفا إزاء موقعه في الكلام، وأن يأخذ بعين الاعتبار المتلقي المشار إليه.

4-ألفاظ القرابة:

إن القرابة في أبسط تعريف لها هي مجموعة محددة من العلاقات تستخدم النظم التشريعية أو القوانين لتحديد أي أعضاء الأسرة تتأثر بهذه القواعد، وتتضمن الأباء، والأزواج، والأشقاء، والأطفال، ومن الممكن أن تتضمن أشخاص آخرين تربطهم علاقات الميلاد، أو التبني أو الزواج،

1- ينظر: ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص 108.

Kerbrat-Orecchioni, L’enonciation de la subjectivité dans le langage.p.55.-2

أو التعايش مثل: الأجداد والأحفاد والأصهار وغيرهم...فهي إذن الرابطة التي تربط الشخص بالآخر سواء كانت هذه الرابطة رابطة مصاهرة، أو نسب...وغيرها.

فكلمات أو ألفاظ القرابة ليست مجرّد تسميات لغوية فحسب، ولكنها «كلمات شاهدة توضح لنا تصورات ذهنية لظواهر اجتماعية تفسر لنا الفعل الجماعي والسلوك الفردي للجماعة اللّغوية، يتصل بهذا التصوّر مفهوم آخر يرى أن القرابة ليست ظاهرة عضوية بيولوجية معتمدة على صلة الدم فحسب بقدر ماهي ظاهرة اجتماعية تعتمد على أعراف المجتمع ومعتقداته».[(1)]

لقد عدّت "أوريكيوني" الألفاظ ذات السمة الأسرية عناصر ذاتيه، مثل أب، أخ، أم، أخت، خال، عم...الخ، بالرغم من قولها بأنها ليست قرائن اشارية، ولكن تستحق رغم ذلك الاهتمام بها لعدّة أسباب منها:

«الميزة الخاصة للفظتي "أب"، و"أم"، فإذا استعملتا عن طريق معين أو تحديد مسبق مثل أبي، أبوك، أبوه، فهي تشير مباشرة إلى المقصود وهو "أب" المعني من طرف المتكلم، أمّا إذا استعملتا بدون تحديد مسبق فهي كذلك تحيل ولو بشكل غير مباشر على "الأب" الذي يتحدث عنه المتكلم سواء أكان أبوه أو أبو غيره، وتقدّم "أوريكيوني" مثالا على ذلك: "أب" يتصل بمدير مدرسة ليخبره أن ابنه لا يستطيع الحضور لأنه مريض، فيجيب: من يتكلم، فيرد الأب بقوله "بابا" فكلمة "بابا" هنا تحيل مباشرة إلى كلمة "أبوه" أي "أب" الولد، بمعنى المتصل هو أب الولد المريض، فكأن يشير الولد أن المتصل والذي يتكلم مع المدير هو أبي "أنا" وهنا اشارة واضحة إلى وجود الذاتية».[(2)]

فكلمتي "أب" و "أم" بمجرّد النطق بها تحيل مباشرة إلى مدلولاتها، فهي قرائن اشارية سواء استعملت بمعين مسبق الذي يشير بذلك إلى هوية هذه الكلمات بالرجوع إلى المتكلم وقصده من استعمال هذه الألفاظ، كذلك إذا لم تستعمل بتحديد معين فهي تحيل دائما إلى "أب" أو "أم" الذي يقصده المتكلم. أما السبب الآخر لجعل ألفاظ القرابة تحيل إلى الذاتية هي الاستعمال المفرط لألفاظ

1- كريم زكي حسام الدين، اللّغة والثقافة، دراسة انثرو لغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، القاهرة 2001. ص11.

Kerbrat-Orecchioni, L'enonciation de la subjectivité dans le langage.p.61.-2

القرابة وهذا ما يعلنه «"لفي ستراوس" حينما تحدث عن استعمال هذه المصطلحات في اللّغات الهندوأروبية فهي مصطلحات منظمة في بعد ذاتي على خلاف نظيرتها الصينية حيث يتعلق الأمر بنسق موضوعي، فألفاظ القرابة في هذه اللّغات تدرك عن طريق صلتها بالشخص، فهي تصبح ألفاظ مبهمة لتنطبق على أقرباء بعيدين».[1]

فالأنساق الهندوأروبية أنساق ذاتية تنطلق من "الأنا"، وتترك انطباعا بأن مرجعية هذه الألفاظ تكمن في فاعل فعل القول فهي تحيل إلى الشخص الذي يتلفظ بها، بينما في الأنساق الصينية فهي أنساق موضوعية، فادراكها يكون بمعرفة الشخص وبذلك تتطبق على اقرباء بعيدين وبالتالي تخلف نوعا من اللبس والإبهام.

فألفاظ القرابة الأسرية عناصر ذاتية بمجرّد التلفظ بها، كما يجب أن يراعي فيها المتكلم المتلفظ بها، لأن هذه الألفاظ تختلف باختلاف الأجناس المستعملة لها فقد يستعملها المتكلم للاشارة مباشرة إلى أن اللّفظ يرجع إليه، أو استعمالها يتحدّد من خلال جنس الشخص المستعمل لها أو بمعرفة الشخص ذاته تحيل إلى مرجعه.

وعلى العموم فإن الاشاريات عناصر ذاتية، ومدلولها يعرف من خلال السياق وهذا ما اهتمت به التداولية.

2-الذاتيات: Subjèctivémes

هي تلك الكلمات أو التعابير الدّالة على القيمة، أي اصدار أحكام ذات قيمة وصفية نعتية، والحكم تقرير ذهني يثبت به العقل مضمون القول، أو هو اتخاذ رأي صالح لتوجيه السلوك في الأحوال التي لا يستطيع الوصول فيها إلى معرفة يقينية، أو هو اسناد أمر إلى آخر ايجابا أو سلبا.[2]

1-Kerbrat-Orecchioni, L'enonciation de la subjectivité dans le langage. p.62.

2-ينظر : رمضان الصبّاغ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، الاسكندرية، مصر 1998. ص 13.

إن الموقف القيمي هو موقف يحدث فيه السلوك المفضل, هذا السلوك يوجه إلى موضوع أو مجموعة من الموضوعات، أو إلى خواص الموضوع، أو مجموعة من الخواص، ويكون الموقف القيمي متضمنا علاقة وفعل ايجابي أو سلبي، سلوك مفضل عامل بالنسبة لشيء ما، فهو إ ذن موقف «يكون فيه المتكلم في موضع مفاضله، أو مقارنة وليس في وضع نقوم فيه بالتحليل، فحكم القيمة ينسب إلى الأشياء قيمة معينة، وهذه القيمة قد تكون أصلية أو مشتقة من علاقاتها بشيء آخر ذي قيمة، فلكي نقول بأن شيئا ما خير يعني أنه مرغوب، فإذا كان خيرا أساسيا، فهذا يعني أن الرغبة فيه تعتبر غاية».[1]

ولكي يكون الحكم تقويما لا بد أن يكون الشخص المصدر له يتكلم بلا حياد أو يغير ما هو حقيقي أو يستعمل عناصر مؤثرة كتأكيد موقفه مثلا، فتعابير القيمة تعبير عن انفعال ذاتي، وتسعى إلى اثارة انفعال مشابه في الغير، ومن مميزات مصطلح القيمة في استعماله «أنه يشمل المجال الكلي لما هو مرغوب، وما هو غير مرغوب دون تمييز، فعندما تكون القيمة في الجانب الإيجابي الموجب كالجميل مثلا، فيمكننا أن نسميها قيمة موجبة، أما إذا كان الشيء محايدا تماما ولا يثير أدنى اهتمام أيا كان فإننا يمكن أن نقول أنه بلا قيمة».[2]

فأحكام القيمة تشمل كل ما يصدره المتكلم من أحكام مرغوب فيها، يعبر فيها عن انفعال ايجابي، وما هو غير مرغوب، وبالتالي يعبر عن انفعال سلبي، وهذا ما يدعى بالقيمة الإيجابية والسلبية.

وعليه فالأحكام القيمية هي كل حكم نصدره على شخص أو واقعه بالمدح أو القدح بالاستحسان أو بعدم الاستحسان، إنها أحكام ذاتية، مضمونها السيء و الجيد و القبيح...إلخ، و قد صنفتها "أوريكيون" إلى «تأثرية Affectifs وتقيمية évalithfs، فالتأثرية هي اصدار المتكلم حكم تأثيري على خاصية الشيء بينما التقيمية هي تقييم الشيء المتحدث عنه وتكون إمّا قيمية أو غير قيمية، فالقيمة هي أن تصنيف لتقييم المعيار حكم قيمة ايجابيا كان أم سلبيا، أما غير قيمية فهي لا تحمل أحكام قيمة إلاّ أنها تفترض تقييم معيار ما»[3]، فهي أحكام وأوصاف يطلقها المتكلم على

1- المرجع نفسه، ص15.

2- نفسه ، ص62.

Kerbrat-Orecchioni, L'enonciation de la subjectivité dans le langage.p.79.-3

موضوعات خارجية، فهي تدّل على شخصية وذاتية المتكلم ممثلة بصورة لسانية، وقد تناولت "أوريكيوني" موضوعا مهما يتمثل في التشكيك في وجود الموضوعية، فالمتكلم يصعب أو يستحيل عليه الالتزام بالموضوعية، في مختلف الخطابات مهما كانت نزعتها وموضوعها العلمي.

«وساقت مثالا على ذلك من خلال أحد الدروس في كتاب الجغرافيا الذي جاء بعنوان "فرنسا بلدنا الجميل" حيث يظن الناس أن لا مجال للذاتية في مثل هذه الكتب العلمية، وتظهر الذاتية في مثل هذا المثال بمؤشرين اثنين هما:

أولا: عن طريق الضمير نون الجمع في "بلدنا" والدال على جغرافية موطن المؤلف.

ثانيا: استعمال صفة ذات قيمة وصفية وجدانية "جميل" التي تحمل حكما تقيميا أصدره المتكلم عن الموضوع المذكور».[1]

وتفترض أحكام القيمة معايير ليست بالضرورة عالمية Universelles، لأن «المتكلمين يصيغونها انطلاقا من فهاريس خاصة بعالمهم ومجموعاتهم المتخيلة، فأنواع الشتم تختلف باختلاف المجموعات الاجتماعية، والشتم ولو بلفظة واحدة يمثل قولا مثل، خسيس Salaup تدل على نوع من السلوك وتحمل المتكلم على اتخاذ موقف إزاء المخاطب».[2]

كما ينظر إلى الأحكام الوضعية أنها وصف ذاتي، تنظر إلى الشيء الموصوف من حيث وقعه على الناظر أو السامع، ويعتمد على الايحاء والتلميح، والوسيلة المستعملة في الوصف هي اللّغة بألفاظها وتراكيبها وتعابيرها البلاغية من تشبيه واستعارة ومجاز.

وتعتبر الصور الفنية والبلاغية من أهم عناصر الوصف التي تعبر عن الذاتية، لأنها تعطي انطباع الشاعر أو الأديب حول الموضوع الموصوف، بصورة فنية جمالية وتعتبر وسائل يتخذها المتكلم للتأثير في المتلقي، والصورة الفنية قد تكون موضوعية معبّرة عن مشاعر وحالات نفسية، وأفكار عامة، أي معبّرة عن نفوس المجتمع ومشاعره، ومصوّرة حالاته خيرها وشرّها، حلوها

1- Ibid.p.81.

2-ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص117.

ومرّها. وقد تكون ذاتية جاء بها الأديب ليعبر عن حاله الخاصة، ويكون تأثير الخيال فيها أوضح من سابقتها، مادام الخيال يغلب على مثل هذا الضرب من الصور، فإن احساس الشاعر بنفسه يكون أقوى من احساسه بمجتمعه، ويكون التعبير عن الأفكار الجمالية عن طريق مجموعة من الأشكال البلاغية وتأتي في المقام الأوّل الاستعارة، الكناية والمجاز والمجاز المرسل وغيرها من بقية الأشكال البلاغية.[1]

ومما ينبغي اللّفت إليه أن هناك تمييز بين الأحكام القيمية والوصفية من حيث العاطفة ففي الوصف نقول مثلا الثوب أحمر، الطعام بارد، بينما القيمية تقول الثوب جميل، الطعام لذيذ..الخ، فلا يتم اصدار الأحكام الوصفية عادة بطريقة عاطفية، ولا تخالجنا مشاعر عند اصدارها بينما الأحكام القيمية ترتبط بالعواطف والمشاعر ارتباطا وثيقا.

1- ينظر : صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، (دط)، الكويت 1992. ص137.

ثالثا: في مفهوم الشعر الجاهلي وخصائصه

1- السياق التاريخي والاجتماعي للعصر الجاهلي

أ- السياق التاريخي:

الجاهلية اسم أطلقه القرآن الكريم على العصر الذي سبق الإسلام، لأن العرب في ذلك الزمن، كانوا أهل جاهلية بسبب عبادة الأصنام، وعادة أخذ الثأر ووأد البنات وشرب الخمر وغيرها، ولهذا ينبغي أن نعرف أن كلمة الجاهلية التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم وإنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب، وقد استمر هذا العصر قرابة قرن ونصف من الزمن، وقد أطلقت الجاهلية على مرحلتين من الزمن الذي سبق الإسلام.

المرحلة الأولى والتي سميت "بالجاهلية الأولى"، وقد امتدت من زمن ما قبل التاريخ إلى القرن الخامس ميلادي، أما الثانية والتي أطلق عليها الجاهلية الثانية فقد امتدت من القرن الخامس عشر وحتى سنة 622م، وهذه الفترة الجاهلية هي المعنية بالعصر الجاهلي عند الباحثين، ومن ظن أن بلاد العرب قبل الإسلام كانت بلاد جهالة فقد أخطأ لأن العرب كان لهم آنذاك حضارة لا تقل عن حضارة من سبقهم، أو من عاش في زمانهم، وهذا ما تظهره النقوش، وقد شهد لهذه الحضارة (ونكلر) الذي قال: «إن تاريخ الجزيرة العربية كما توضحه النقوش يظهر لنا مجموعة من الحكومات والدول المنظمة من أقدم القدم» .[1]

هذا على زمان العصر الجاهلي، أما مواطن العرب في جاهليتهم فهي «رقعة شاسعة الأرض، ذات بقاع متباينة، في المناخ وفي التضاريس، وطبيعي أن تختلف بيئاتها اختلافا يكاد يجعل منها مواطن متعددة، نستطيع أن نميز أقساما ثلاثة فيها من حيث البيئة الطبيعية مناطق الاستقرار الطبيعي حيث الماء والزرع والمناخ المعتدل، نشأت فيها تبعا لهذه الظروف دول مستقرة نسبيا في اليمن والشام والحيرة، وقوام حياة أهلها الزراعة والتجارة، ومناطق صحراوية تصيب بعض الغيث، أو فيها بعض العيون والآبار سمحت بزراعة بسيطة (...) »[2]، ومناطق صحراوية لا يفي ماؤها بحاجة الزرع(...) ولم يكن يتوفر عند سكان الجزيرة العربية ظروف العيش الرغيد، لذلك

1- يوسف عطا الطريفي، العصر الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، عمان ، الأردن 2006. ص10.

2- عبد الرحمن عفيف، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، لبنان 1984. ص 14.

اضطر الجاهلي أن ينتقل من مكان إلى آخر بحثا عن مورد رزقه، يصارع كل قوة تقف في سبيل استمرار وجوده، فكان العربي الجاهلي يعيش في خطر دائم وفي أحضان بيئة وطبيعة صحراوية قاسية، تعصف به مظاهر القحط والجذب من كل ناحية.

وقد تعددت مصادر دراسة العصر الجاهلي، فمن الحفريات والآثار والنقوش التي عثر عليها في الجزيرة العربية، إلى القرآن الكريم والحديث الشريف، حيث يعتبران أهم من أشار إلى أنماط حياة الجاهليين بالإضافة إلى مؤلفات غربية عن العرب والتي ترجع إلى فترة ما قبل الإسلام، إلى الآثار المروية أو المكتوبة التي خلفها الجاهليون من ورائهم: شعرهم، نثرهم وأخبارهم[1]. فمصادر دراسة العصر الجاهلي عديدة منها الحفريات والآثار بالإضافة إلى القرآن الكريم وكذا الحديث النبوي الشريف، كذلك الشعر والنثر.

ويعتبر الشعر العربي من أهم المصادر التي تدلنا على حياة العرب في جاهليتهم، لأنه نقل إلينا براعتهم اللغوية وفصاحتهم البيانية، وقد برعوا في هذا الفن براعة كبيرة، ووظفوا فيه لغتهم التي تتميز بالغنى والمتانة في البناء والتي ساهموا في نمائها وجمالها، ولهذا يعتبر الشعر الجاهلي قاعدة أساسية ومهمة لدراسة القرآن الكريم وشرح كلماته، كما يعتبر وثيقة مهمة لدراسة الحياة في العصر الجاهلي ومجموع القيم التي كانت سائدة في ذلك العصر، ولذلك قالوا بأن الشعر "ديوان العرب" فهو جامع شؤونهم ومظاهرهم ومعارفهم واهتماماتهم وكذا محيطهم الاجتماعي.

وكان للشاعر مكانة عظيمة في قبيلته، فإذا نبغ فيها شاعر، جاءت الوفود من القبائل الأخرى لتهنئته، وصنعت لهم الأطعمة واجتمعت النساء والرجال والولدان حوله، لأن الشاعر يشيد بذكرهم ويذب عن أجسامهم ويدافع عن أعراضهم. قال الجاحظ في البيان والتبيين: والخطباء كثيرون في الجاهلية، والشعراء أكثر منهم، ومن يجمع الشعر والخطابة قليل وقال أيضا: كان الشاعر يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم من غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم فيهابهم شاعر غيرهم ويراقب شاعرهم [2]، فالشاعر ابن بيئته يدافع عنها ويشيد ويتغنى بها، لذلك اعتبر الشعر الجاهلي من أهم

1- ينظر: مصطفى السيوفي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ط1، القاهرة 2008. ص11.

2- ينظر: يوسف عطا الطريفي، العصر الجاهلي، ص11.

المصادر التي تعبر عن الحياة في شتى نواحيها في العصر الجاهلي، حيث يضم مجموعة كبيرة جدا من الآثار والأخبار عن هذا العصر، كما تعتبر العمدة التاريخية الأولى في تصوير حياة العرب في العصر الجاهلي تصويرا مباشرا و صادقا.

ب- السياق الاجتماعي:

انقسم العرب في العصر الجاهلي إلى فريقين: أهل الحضر وأهل البدو وكانوا كثرة وهم أهل البادية، أما أهل الحضر فكانوا يعيشون في القرى والمدن سواء في الشام أو الحجاز أو اليمن والعراق، يعيشون على التجارة والزراعة، كان لهم أسلوب خاص في معيشتهم وحياتهم فقد سكنوا البيوت الفاخرة والقصور الشاهقة، وعاشوا فيها حياة يشوبها الترف والنعيم، ومن أشهر حضر الجاهلية سكان مكة وهم قريش وأحلافها وعبيدها. أما أهل البادية أو أهل الوبر وهم الأغلب في الجزيرة العربية حيث عاشوا حياة تمثل قوة الحياة، حيث الجفاف وقلة المطر، فكانت حياتهم حياة ترحال وراء الكلأ ومساقط المياه، وكانوا يعتمدون في معيشتهم على الحروب والغزو والاستيلاء على مواشيهم غضبا، كانوا يحترفون الصناعة ويتعصبون للقبيلة، وتتألف من ثلاث طبقات: أبناؤها الذين تربطهم صلة الدم، والقرابة، العبيد وهم الرقيق الذين جلبوهم من البلدان المجاورة وفئة أخرى تسمى الخلفاء وهم الذين خلعتهم قبائلهم، كما نجد نوعان من النساء، إماء وحرات، فالحرة هي الشريكة المخلصة للرجل، وقد اشتهرت بعض النسوة بالرأي السديد والمكانة الرفيعة.

وينظر البدوي للقبيلة أنها: «معبودة يضحي من أجلها بكل غال ونفيس ويتغنى بها وهو لا يؤمن إلا بذاته، وهذه الذاتية هي التي جعلت الشعر الجاهلي كله ذاتيا، ومن هذا الاعتزاز بالنفس احتلت قصائد الفخر والحماسة معظم دواوين العرب الجاهلية وإعجاب العربي بنفسه جعله لا يؤثر أدبا على أدبه وفي مثل هذا قال أبو عثمان الجاحظ: وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب»[1]، فالقبيلة بالنسبة للبدوي لها مكانة خاصة يدافع عنها، يحميها، ويقف يدا واحدة لمواجهة الأعداء الذين يتربصون بأمن وسلامة القبيلة.

وكان العرب في الجاهلية يتميزون بصفات حميدة، تنبع من فطرتهم السليمة التي فطر عليها الخلق كالكرم، والجود ومن سننهم فيه أنهم كانوا يوقدون النار على الكثبان والجبال، ومن أجودهم

1- حسين الحاج حسين، أدب العرب في عصر الجاهلية، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، بيروت 1997. ص24.

حاتم الطائي التي ضربت الأمثال بكرمه والوفاء بالوعود وحماية الجار، والجرأة والشجاعة والعفو في المقابل كانت لهم عادات سيئة وذميمة، وكان من أفظعها الغزو والسرقة والنصب، وقد سموا الحروب التي بينهم أياما، ومن أشهرها البسوس، داحس والغبراء، عبس وذبيان ... وغيرها[1].

فقد اشتهر عرب الجاهلية بصفة الكرم أكثر من الصفات الأخرى، «وقد بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وامحال فكان الغني بينهم يفضل على الفقير، وكثيرا ما كان يذبح إبله في سنين القحط، يطعمها عشريته، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه، ومن سننهم أنهم يوقدون النار ليلا على الكثبان والجبال، ليهتدي اليهم التائهون والضالون في الفيافي، فإذا وفدوا عليهم أمنوهم حتى لو كانوا من عدوهم» [2] فالجاهلي كان كريما مع أبناء قبيلته يتضامن معهم ويضحي بكل شيء من أجل سعادتهم وراحتهم ليتجاوزوا معا ظروف الصحراء القاسية وحياة الكثبان والجبال.

كما نجدهم يقدرون صفاتا ويجعلون صاحبها يشتهر بحمله لهذه الصفة على غرار الوفاء «فكانوا لايقدرون شيئا كما يقدرون الوفاء، فإذا وعد أحدهم وعدا أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهدا أن ينصروه، وجعلهم ذلك يعظمون الأخلاق فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب، وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم، حتى يلحقوا به عار الأدب» [3]، ولا نجد أية صفة حميدة إلا وتمدحوا بها كالعزة والكرامة، كما تمدحوا أيضا بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة، كما تمدحوا بالأنفة ورفضوا كل صفات الضيم باعتبارهم أهل حرب وجلاء.

إن صفتا الهوان والضيم تمثلان أقبح صفة يحملها الانسان الجاهلي، فهما السوأة الكبرى والكارثة العظمى، فهما يعنيان الذل والخزي وإذا استبيحت القبيلة، فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها وشرفها، فكل شيء إلا الذل والهوان وكان أقل شعور به يثيرهم ويستفز مشاعرهم، كما كان

1- ينظر: سامي يوسف أبو زيد ومنذر ذيب كفافي، الأدب الجاهلي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، عمان 2011. ص25.

2- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، ط 24،القاهرة 2003. ص78.

3- المرجع نفسه، ص 79..

للشجاعة والفروسية أهمية ومكانة عندهم، وذلك بحكم حروبهم التي تدوم طويلا ولا تنتهي، كذلك لعبت البيئة الصحراوية دورا كبيرا في فخر الجاهلي بهذه الصفات. كما كان العرب في الجاهلية يعتبرون القوة مثلهم الأعلى وذلك لأن الصحراء كانت قاسية جدا عليهم، ومن لا يبادر بالعدوان يعتدى عليه، والظالم الغاشم هو الذي يحتل المكانة الأولى في المجتمع الجاهلي، فكان القوي يحتقر الضعيف ويسرق ماله وينهبه ويبعده عن مواطن الكلأ والمياه.

ومن جهة أخرى نجد آفات كانت تشيع في المجتمع الجاهلي ومن أهمها شرب الخمر، القمار واستباحة النساء، ونجد الخمر يجري على كل لسان، فلا تخلوا جلساتهم وسهراتهم من جلسات خمر وقمار، «وقد اشتهر الجاهلي بالحديث عنها وعن كؤوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها كأعشى قيس وعدى بن زيد العبادي الحيرى، وعرض لها كثيرون في أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم، وأكثر من كان يتجر بها اليهود والنصارى، وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام ومن حيرة وبلاد العراق، ويقال أنهم كانوا يضربون خيامهم في بعض الأحياء أو في بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم، فيأتيهم الشباب ليشربوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبهم، وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنى فيه من رذائل » .[1]

وأكبر دليل على شيوع هذه الآفات في المجتمع الجاهلي الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن الكريم، وما وضعه الاسلام من عقاب صارم حتى يكف العرب عنها، فقد نهى عن شرب الخمر وعن الميسر، كما شدد عقوبة استباحة النساء، كما هاجم الاسلام قانون الأخذ بالثأر الذي يعتبر قانونهم الدموي المقدس فلا يهدأ لهم بال إلا وأخذوا بثأرهم من القبيلة وأفرادها.

وانفراد العرب في محيط محدود جعلهم لا يعرفون إلا ذاتهم، لذلك صوروا لنا حياتهم تصويرا صادقا وكان هذا على نمط واحد بشعر يشابه بعضه بعضا، فالبدوي عند مروره في الصحراء ينقل مواشيه فيرى ما يحيط به، فيكرر ما قاله غيره وهكذا، فهو لا يعرف إلا المحيط الذي هو فيه، فكانت حياتهم الاجتماعية منعزلة وسطحية.

1- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصرالجاهلي, ص 80.

2- أغراض الشعر الجاهلي وخصائصه:

الشعر الجاهلي هو الشعر العربي الذي قيل قبل الإسلام بنحو مئتي سنة، في رأي الدارسين، حيث اعتبروه أجود ما قيل في الشعر العربي وقد اشتمل على عدد كبير من الشعراء على رأسهم شعراء المعلقات مثل: زهير بن أبي سلمى، امرؤ القيس، عنترة بن شداد، كما ضم دواوين عدد من الشعراء والشاعرات ويحتوي على معلومات غنية من البيئة الجاهلية، بما فيها الحيوان والجماد.. كما عبرت عن أحداث العرب وتقاليدهم ومعارفهم المشهورة وقبائلهم وأسماء فرسانهم ومحبوباتهم، وغيرها، كما اعتبر الشعر سجلا لحياة الأمة العربية قبل ظهور الإسلام، كما اعتمد عليه علماء اللغة في وضع قواعد النحو واعتمد عليه مفسروا القرآن الكريم في بيان معاني الكلمات، كما تميز الشعر الجاهلي بتعدد الأغراض التي يتناولها الشاعر في قصيدته، حيث عبر الجاهليون بالشعر عن شتى مناحي الحياة عندهم.

أ- أغراض الشعر الجاهلي:

يعد أبو تمام أقدم من تعرض لتقسيم الشعر العربي في مختاراته الموسومة "بالحماسة"، إذ جعلها عشرة أبواب وهي الحماسة، المراثي والأدب والنسيب والهجاء، والمديح والصفات والسير، والمدح ومذمة النساء، ثم جاء بعده قدامة بن جعفر فوزع هذا الشعر على ستة موضوعات في كتابه " نقد الشعر" وهي: المديح، الهجاء، النسيب, المراثي، الوصف والتشبيه، وقد تأثر به عدد من النقاد منهم ابن رشيق القيرواني وجعل موضوعات الشعر في "العمدة" تسعة وهي: النسيب المديح، الافتخار، الرثاء، الاقتضاء، والاستنجاز، والعتاب، والوعيد، الانذار، الهجاء والاعتذار.[1] فقد اعتمد أبو تمام في تقسيمه للأغراض على ثقافته، بينما اعتمد قدامة بن جعفر على المنطق، وابن رشيق القيرواني على ذوقه الجمالي، وعليه سنتناول أغراض الشعر الجاهلي كالآتي:

1- الفخر والحماسة:

ويأتي هذا الفن في مقدمة أغراض الشعر الجاهلي، حيث يعد أصدق الأشعار عاطفة، حيث يتغنى الشاعر الجاهلي بقوته وشجاعته لأنها تمثل عنده صبره وإقدامه، ثم يفتخر بقبيلته وعشيرته ويرفع منزلتهما، ويظهر انعكاس حياة الشاعر القاسية على نفسه، التي امتلأت قوة وصرامة حتى

1- ينظر: سامي يوسف أبو زيد ومنذر ذيب كفافي، الأدب الجاهلي، ص85.

انفجرت فخرا وحماسا بسبب العصبية القبلية. وكان الشاعر الجاهلي شديد الحماس لسيفه ورمحه وسهمه، فيتغنى بهذه الأدوات، كما تغنى الشاعر بالكرم، وحسن استقبال الضيف، إلى جانب هذا فخر الجاهلي بالحلم والعفو عند المقدرة، ثم فخر بالوفاء والابتعاد عن الغدر.[1]

وكانت الفضائل التي مدح بها الشاعر هي نفسها التي افتخر بها من شجاعة وكرم ونسب رفيع، وقد جرت المفاخرة على الأحساب والأنساب بين عامر ولبيد والأعشى وبين علقمة والحطيئة وفتيان من بني الأحوص.

وشعر الحماسة هو شعر الحرب الذي يصف المعارك ويشيد بالأبطال ويتوعد الأعداء، وهذا الغرض قد يبدوا في رثاء أبطال الحروب، أو في مدحهم، أو في سياق فخر الشاعر ببطولاته في الحرب، وقد امتزج بوصف المعارك والإشادة بالبطولة وقد أثمرت حروب القبائل في الجاهلية قصائد حماسية كثيرة.

2- الوصف:

ويراد به وصف الشاعر الطبيعة أو مشهد من المشاهد الحية، أو الجامدة أو كائنا من الكائنات ويعتبر الوصف الوسيلة المثلى لدى الشعراء الجاهليين، فتراهم قد وصفوا كل ما وقع عليه حسهم، وبرزوا كثيرا في وصف الناقة والخيل والحرب ومشاهد الطبيعة التي يعيشون فيها، وباعتبار الشاعر الجاهلي شاعر مرهف الحس، تهتز مشاعره لكل ما يقع تحت ناظريه، يتفاعل مع بيئته، عميق في شعوره، سريع الاندفاع، لما يعبر عنه وما يشاهده.

والحق أن دارس الشعر الجاهلي يجد فيه «وصفا للذاتيات، كما يجد فيه وصفا للموضوعات على اختلاف أجناسها وأنواعها وتباين أشكالها وهيئاتها، ويجد فيه وصفا للمعنويات والمدركات العقلية والخيالية، كما يجد فيه وصفا للماديات والمدركات البصرية والحسية».[2]

والوصف من أدق موضوعات الشعر الجاهلي التي لا ينهض بها إلا ناقد البصيرة صافي الذهن، ودقيق الإحساس، وقد برزت فيه العرب، وكان لشعرائهم حظ وافر ونصيب كبير منه، وكان

1-ينظر : يوسف عطا الله الطريفي، العصر الجاهلي، ص20.

2- علي أحمد الخطيب، فن الوصف في الشعر الجاهلي، الدار اللبنانية، ط1، القاهرة 2004. ص13.

شعرهم تصويرا صادقا لكل ما وقعت عليه أنظارهم من أرض وسماء، وحيوان وشجر وجبال ورياح ورمال وأمطار، ومن برق وسحاب، كما برعوا في وصف محاسن وطباع المرأة، وبرزوا في وصف البقر الوحشي والناقة والفرس، كما نبغوا في وصف الليل وأهواله، وكل ما مر بهم من مظاهر طبيعية وأحداث حياتهم، ولعل دلالة الفطرة عند الشعراء العرب في العصر الجاهلي وتمثيلهم للطبيعة الراقية، كان من أهم الأسباب التي حدت بهم إلى تطبيق وصف الحيوان والنبات وغيرها على علومهم ومعارفهم التي خلدوها في أشعارهم.

3-الغزل:

كان هذا الفن من أشد الشعر وقعا في نفوس العرب، « حيث نجده في كل المعلقات، بل في مطلع كل قصيدة تقريبا، حتى ابتذل الاستهلال بالغزل وقلّ فيه الصدق، فسقط ورك، وكان من محيدي هذا الفن في الجاهلية المهلهل، وعنترة، وسويد، ابن كامل اليشكري، ولاسيما امرؤ القيس، الذي نسب له أول شعر في التشبيب». [1]

وعرف الغزل منذ العصر الجاهلي، ويدلنا تراث هذا العصر من شعر الغزل على رقة مشاعرهم، كما يسجل لنا معاييرهم في جمال المرأة، وقد مضى العصر الجاهلي والقصيدة العربية إلا النادر منها لا تستقل بغرض الغزل وإنما كان يرد في مقدمتها فحسب، ومن أشهر قصص الغزل في هذا العصر نجد: قصة عنترة وابنة عمه عبلة، امرؤ القيس وعشيقته عنيزة، وقد نجد أكثر أشعار شعراء الغزل وأروع قصائدهم وأبرع آثارهم يتصل بالمرأة، فيصفون حسنها وجمالها، ويربطون ألمهم وحزنهم وفرحهم بها، ويذكرون بتأثيرها على النفس، فكل حياتهم مرتبطة بها.

والغزل عند الشعراء نوعان: غزل عفيف، وغزل صريح، ويظهر الغزل العفيف في البادية ويكون عفيف اللفظ، وعفيف المعنى، أما شعراء الحضر هم أصحاب الغزل الصريح. وقد شاع هذا اللون عند العرب في العصر الجاهلي، لأنهم شعروا في صحرائهم الموحشة بحاجتم إلى الغزل لتخفف عنهم الألم والضيق.

4-المدح والهجاء:

1- فؤاد أفرام البستاني، الشعر الجاهلي, نشأته، فنونه، صفاته، المكتبة الكاثوليكية، (د ط)، بيروت 1937. ص23.

عرف الشعر الجاهلي المدح واتخذه وسيلة للتكسب، فقد مدح شعراء الجاهلية المكارم، وهو إما مدح لشكر النعم أو للتكسب، وفيه تضخيم للممدوح، وقد تنافس الملوك في استقدام الشعراء، وتكريمهم بالمال من أجل ذيوع صيتهم، وكانت معاني المدح تنحصر في الكرم والجود والقوة.

وقد تمدح الشاعر الجاهلي بفضائل ثابتة كالشجاعة والكرامة والحلم ورجاحة العقل ورفعة النسب، وكلها ترسم الصورة الخلقية المثلى للإنسان في رؤياه، كما كان يتخذ من المدح المبالغ فيه، باستثناء زهير بن أبي سلمى، حافزا على المزيد من العطاء، وكان يقدم لقصائده في المدح بوصف الرحلة ومشاق الطريق وما أصاب ناقته من الجهد ليضمن مزيدا من بذل ممدوحه.

أما الهجاء فهو على وجهين: هجاء قبيلة بأكملها وهو الأشهر، وهجاء شخصي ولكنه لا يتعدى العيوب النفسية الخلقية إلى العيوب الجسمية الخلقية، فكانوا يحطون من قيمة المهجو ويذكرون معايبه، فالمهجو عندهم جبان، بخيل، له صفات سوء[1]، فالمدح غرضه ذكر محاسن الممدوح بغية التقرب منه، أو اتخاذه وسيلة للتكسب، والهجاء غرضه التقليل من قيمة المهجو ومحاولة نزع القيم الايجابية منه.

فكان يقوم على التنديد بالرذائل منها: الجبن والبخل والسفه الذي هو ضد الحلم، فضلا عن وضاعة النسب، وما عرفت به قبيلة المهجو من مثالب اشتهرت بها بين سائر القبائل، وهذه لا تخرج عن الرذائل التي تنفر منها النفس العربية عادة ولعل من أشهر الهجائين في الجاهلية نجد الحطيئة، وهو من المخضرمين، وكان غير مأمون العاقبة يهجو جماعة من الناس فيحتالون إليه بالأموال ليكفي عنهم الهجاء إثما ومع هذا فقد ظل الحطيئة سائرا في غوايته وهوايته .

5-الرثاء:

يعتبر الرثاء فرع من فروع الشعر الغنائي التي ازدهرت في الجاهلية «وهو التأسف على الميت وذكر محاسنه ومناقبه، ولما كان العرب لا يصطنعون إلا عند الحاجة إليه، كان رثاؤهم عاطفيا وصادقا، والخنساء من هذا النوع في الدرجة الأولى، وكانت لا تنظم شيئا يذكر قبل مقتل

1- ينظر: يوسف عطا الله الطريفي، العصر الجاهلي، ص22.

أخويها معاوية وصخر لأنها لم تكن ترغب أن تمثل دورا في حروب العرب وسياساتهم، ولكن حيث فاجأها نعيهما خرج شعور من قلبها فياضا».[1]

عرف الرثاء منذ العصر الجاهلي وكان يتميز بما تميزت به سائر الأغراض من حيث الصدق وعفوية الأداء وقد رثى شعراء الجاهلية قتلاهم في الحروب كما رثوا موتاهم في غير الحروب. وكانوا يرثون قتلاهم بذكر مناقبهم والبكاء الحار عليهم حثا للقبيلة على الثأر كما أدت المرأة دورا كبيرا في رثاء قتلى الحروب، ومثلما رسم الشعراء الجاهليون صورة في المثل والفضائل في قصائد المدح والوصف، فكذلك كانوا في مراثيهم يعددون فضائل الميت حتى عرف النقاد القدماء الرثاء بأنه ذكر فضائل الميت ومدحه.

وعموما إن الرثاء كان يتمثل في بكاء الميت والفجع عليه، وإظهار اللوعة لفراقه، والحزن لموته، والإشادة بمناقبه وشمائله، وقد كانوا لا يبالغون في ذلك ولا يزيفون وكانوا يبكون في الميت الشجاعة والكرم والنجدة والوفاء وغيرها.

6- الحكمة:

شعر الحكمة هو ذلك الشعر الذي يعبر عن تجارب الشعراء التي مروا بها من أجل تكوين مرجعا يرجع إليه الناس، فهي تصلح لأن تطبق على المواقف المشابهة لدى الآخرين في كل زمان ومكان، ذلك لأنه ليس شرطا في الحكمة أن تكون صادرة عن إنسان كبير، ولكن قد تنبع الحكمة من إنسان صغير السن، «فليس من الضروري أن يكون أصحاب الحكمة من المسنين الذين مدت لهم الحياة في حبال العمر، ولا من الذين اصطبغوا بصبغة تلك الأحداث أو شاركوا فيها، وإنما يكفي النفس الحساسة والبصيرة النافذة التي تستطيع أن تنفذ إلى أغوار النفس وأسرار الحياة، وأخلاق البشر وإن قصرت الأعمار».[2] فشعر الحكمة هو ذلك الشعر الذي يتضمن ما لدى

1- فؤاد أفرام البستاني، الشعر الجاهلي، ص24.

2- سامي يوسف أبو زيد ومنذر ذيب كفافي، الأدب الجاهلي، ص108.

الشعراء من تجارب العقل والحياة، ويعد زهير بن أبي سلمى أشهر شعراء الحكمة في الشعر الجاهلي، حيث نجد شعره يتضمن وصف أهوال الحروب ومفاسدها، رغبة منه إقناع المتحاربين بالمصالحة والسلم في أسلوب من الحكمة التي تمنح الشعر بعدا انسانيا رفيعا، ولم تخل حكمة شعراء الجاهلية من تسجيل أفكار العرب في هذه الحقبة وتصوير مثلهم وتجارب حياتهم، فحكمة شعراء الجاهلية تنم عن تجربة، لذلك جاء شعرهم يحمل نزعة روحانية وقد كان تعبيرا عن أساليب خاصة يتعلق بالناحية الدينية، ويتطرق الشاعر إلى هذه الأغراض في أشعاره، إلا أنه يستقر إلى غرض واحد يبني عليه قصيدته.

ب -خصائص الشعر الجاهلي:

تعد البادية بيئة الشعر الجاهلي، وكان الشعر يدور حول موضوعات متعلقة بهذه البيئة، بوصفه مرآة لهذه الحياة البدوية، فقد استوحى الشاعر أبيات قصيدته من البيئة التي كان يعيش فيها، ومهما طالت القصيدة أو قصرت فقد جاءت تقليدا ثابتا في أوزانها وقوافيها، ومن يتبع الشعر الجاهلي يجد جملة من الخصائص المعنوية واللفظية نذكر منها:

1- الخصائص المعنوية:

كان الشاعر يعبر عما يشعر به حقيقة مما يختلج في نفسه، ولذلك جاءت معاني الشعر الجاهلي صادقة وواضحة المعالم تكاد تخلو من المبالغات، ينسخها الشاعر من واقع بيئته نسخا أمينا دون أن يغوص في أعماق الأشياء أو العالم المادي الذي يحيط به، يكاد يتخلى عن وصف بيئته الصحراوية على نحو ما يلقانا عنترة في وصف الروضة، إذ نسخهما من واقع البيئة بكل أمانة ودقة، والصفات التي ذكرها صفات واقعية وتقريرية[1]، فالشعر وثيقة يعبر بها الشاعر عن حياته وبيئته بكل ما فيها ويجمع ألوانها، وما يختلج في نفسه دون تكلف فهو يبحث بما بشعر به هو .والشعر الجاهلي وجداني «يعبّر عما تجيش به نفس الشاعر، يصف نفسه وشعوره، حتى عندما يمدح أو يرثي أو يقول الحكمة، لأن بساطته وطبعه مطبوع على الصراحة، فلا يتلعثم ولا يتطرف، ومن أجل ذلك فقد فضل النقاد شعر البداوة على الشعر الحضري، لما عند البدوي من عفوية في

1- ينظر: سامي يوسف أبو زيد ومنذر ذيب كفافي، الأدب الجاهلي، ص78.

نظم، ويسر الحياة وبعده عن التعقيد»[1]. فمعاني القصيده الجاهلية مازت بسمة البساطة والصدق والوضوح، فلا يتعمقون في استحضار المعاني وإنما يتناولونها في سهولة ورفق من مخيلتهم، من غير عناق فكر، فهم يتحدثون في شعرهم عن الصحراء والسماء والزمن والأطلال والإبل إلى غير ذلك مما تقع عليه عيونهم في حياتهم البدوية، وبالتالي فالقصيدة الجاهلية تتميز بالبساطة واليسر، لأن الحياة الجاهلية البدوية تسودها البساطة، والشاعر في العصر الجاهلي لا يحتاج إلى التكلف، لأن بيئته يسيرة ساذجة بعيدة عن كل أنواع التعقيد الحضاري.

كما تتسم القصيدة الجاهلية أيضا «بالإطالة والاستطراد، وتفيض بالحركة والحيوية، لا يكتفي الشاعر بموضوع واحد، وإنما ينتقل من موضوع إلى آخر، فهو إذ يقف على الطلل، ينتقل إلى وصف الناقة والفرس ويشبهها بالحيوان المتوحش حينا وبالطيور الكاسرة حينا آخر، ليدلل على قوتها وسرعتها، ويخلص بعدئذ إلى الغرض المقصود من فخر أو حماسة، أو مديح أو هجاء، ومن ثم عرف الشاعر بأنه كان طويل النفس، فكان يطيل قصائده، إلى جانب إجادته في المقطعات»[2].

يتصف الشاعر الجاهلي بطول النفس مما أدى إلى أطالة قصيدته، فينتقل بذلك من موضوع إلى موضوع آخر أي أنه يستطرد ثم يعود إلى غرضه. وقد اتسع خيال الشاعر في العصر الجاهلي باتساع أفق الصحراء التي كان يعيش فيها، «وقد عبر عنها الشعراء بخيال يحلق في آفاق البادية، بروائح التشبيه، وطرائف الاستعارات ومأثور الحكمة، وفلا يصرف ولا يوغل لأنه يستمد تشبيهاته واستعاراته وكناياته من مناظر البادية وعاداتها، ومألوف ما يجري حوله في سمائها من أفلاك ما يطرد في صحرائها من نبات وحيوان»[3].

ويعد الأسلوب المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو هو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير عن المعاني أو هو طريقة اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر في النفس من سهولة أو غرابة أو وضوح أو صنعة وتمتاز الأساليب الجاهلية بجودة السبك، وشدة الأسر، وشدة الأسر، وروعة الأداء، ومتانة التراكيب، وفخامة النسج، تظهر فيها طبيعة جودهم وسذاجة حياتهم، فلا نجد فيها كلفا

1- يوسف عطا الله الطريفي، العصر الجاهلي، ص16.
2- سامي يوسف أبو زيد ومنذر ذيب كفافي، الأدب الجاهلي، ص81.
3- حسين الحاج حسين، أدب العرب في عصر الجاهلية، ص51.

بالزخرف، ولا تكلفا في الأداء، فقد كثر في أساليب الشعر الجاهلي الإيجاز لميل العرب إليه, وقل المجاز والإطناب والحشو، وندر المحسن البديعي لبساطة حياتهم. والخيال هو العنصر الذي يتناول المعاني والأفكار والحقائق فيلونها تلوينا خاصا بواسطة التشبيه أو الاستعارة أو نحوها من ألوان التخيل ليثير العاطفة في نفوس السامعين ويلهبها، ويشعرهم بها كما شعر الشاعر. فالشاعر الجاهلي يعتمد في خياله على جملة من التشبيهات والاستعارات والكنايات أي خياله يظهر من خلال الصور البلاغية، كما يتميز الشعر الجاهلي بالقول الجامع، فالبيت الواحد يجمع عدة معاني تامة، وقيل في مقدمة امرؤ القيس:" قفا نبك" أنه أول من فتح الشعر واستوقف وبكى واستبكى ووصف ما فيها، لهذا تميز الشعر الجاهلي بالوجدانية.

ب -الخصائص اللفظية:

ارتقت لغة القصيدة في الجاهلية، سواء من حيث ألفاظها أو تراكيبها فكان الشعراء «يعزفون من معجم لفظي واحد، ومالت الألفاظ إلى الخشونة والفخامة أكثر من ميلها إلى الرقة أو العذوبة. وهي إذ تبدو غير مألوفة لنا اليوم، فقد بدت مألوفة في العصر الجاهلي، وقد تكون اللفظة الغريبة جميلة في لفظها، وقد تكون وحشية مستكرهة في اللفظ، وتكاد القصيدة الجاهلية تخلو من الأخطاء والألفاظ الأعجمية، إلا في النادر، وفي ذلك لأن العرب لم يكونوا قد اختلطوا بغيرهم من الأمم»[(1)].

وما يلفت النظر في الشعر الجاهلي، أن صياغته كاملة، وتراكيبه تامة، وعباراته مستوفاة، والتركيب متين وصحيح، يجري على قواعد اللغة، ليس فيه خطأ التقديم والتأخير، فلا نجد فيه زيادة لا فائدة منها، ولا حذف بغير سبب، كما حفلت القصيدة الجاهلية بالصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية، وهي كلها صور مستوحاة من البيئة الجاهلية وقد استعانوا بهذه المحسنات اللفظية والمعنوية للتأثير في سامعيهم، وما يلاحظ عن الشاعر الجاهلي أنه يخرج قصيدته في حول كامل، حيث يعيد النظر في عباراتها وألفاظها حتى تصبح تامة مستوية. كما يميل الشعراء الجاهليون في ألفاظهم وصورهم إلى التكرار وهي ظاهرة معروفة عندهم بمعنى أنهم «يبدؤون

1- سامي يوسف أبو زيد ومنذر ذيب كفافي، الأدب الجاهلي، ص80.

ويعيدون في ألفاظهم ومعانيهم، وهذا فضلا عن أنهم يميلون إلى الإيجاز وهو التعبير عن المعاني الكثيرة بأقل عدد من الألفاظ»[1].

أما عن شكل القصيدة الجاهلية نجد أن الشعراء يسيرون فيها على نهج خاص بهم، فهي تشكل عن الشاعر بالنظر إلى أحواله النفسية والمكانية والزمانية فتأتي امتدادا لنغمة البيت الواحد، وتكرارا موسيقيا غنائيا، تصحبه معاني غزيرة وتقسيم غريب للأفكار، حتى تتجمع أجزاء القصيدة وتتتابع أبياتها.

والقصيدة الجاهلية نراها تستهل دائما بالغزل وذكر الأطلال وذكر ديار المحبوبة التي درست وانمحت آثارها وأصبحت مرتعا للآرام والضباء، فالشاعر يعرض لنا مشهدا عاطفيا كئيبا مؤثرا يرتبط بذكرياته الماضية وأيامه الحوال، ثم نراه ينتقل إلى غرض آخر كالمدح أو الرثاء أو الفخر وغير ذلك من الأغراض التي اشتهر بها الشعر الجاهلي، كما يذكر المعاناة التي لقيها الشاعر في رحلته ما يصادفه فيها من أهوال ومتاعب فبكاء الأطلال غرض جاهلي أصيل وظاهرة شاعت في العصر الجاهلي.[2] فالمقدمة الطللية جزء مهم في القصيدة الجاهلية ولا يمكن للشاعر الاستغناء عنها أو فصلها، وقد تكون الجزء الذي يقصد إليه الشاعر والتي لولاها لا ينظم قصيدته.

كما تقوم القصيدة الجاهلية على الوحدة الموضوعية التي تقوم على أساس تنمية الشاعر لأقسام القصيدة تنمية عضوية، بحيث ينشأ كل جزء من سابقه نشوءا طبيعيا ولابد أن يستدعي الجزء الذي يليه استدعاء حتميا، وعليه تتكامل أجزاء القصيدة كلها وتشملها عاطفة موحدة، وبتالي تكون القصيدة الجاهلية عبارة عن نبضات واهتزازات عاطفية وسلسلة من التفاعلات والانفعالات لعواطف الشاعر وأحاسيسه.

1- المرجع نفسه، ص82.

2-ينظر : علي أحمد الخطيب، الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، القاهرة 2003. ص244.

3- ظاهرة المعلقات:

المعلقات قصائد طويلة مختارة من الشعر العربي في العصر الجاهلي، وتعتبر هذه القصائد أروع وأجود ما قيل في الشعر العربي القديم لذلك اهتم بها الناس ودونوها وكتبوا شروحا لها، وهي عادة ما تبدأ بذكر الأطلال وتذكير ديار محبوبة الشاعر، كما اهتم بها النقاد، وعكفوا على شرحا لما احتوته على كثير من فنون القول، وتصوير حياة العرب في كثير من نواحيها، وقد اختلف القدماء في تسميتها وفي عددها فمنهم من يسميها القصائد السبع الطوال، والقصائد العشر والمذهبات، المشهورات، السّموط، السبعيات وغيرها من الأسماء، إلا أن المصطلح الشائع عند الكثير من الباحثين هو "المعلقات".

وقد اختلف الباحثون في سبب تسميتها «بالمعلقات" فهناك من يرى أنها علقت في الكعبة على نحو ما جاء في رواية ابن الكلبي من أن أول شعر علق في الجاهلية هو شعر امرؤ القيس، علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نُظر إليه ثم أحدر فعلقت الشعراء ذلك بعده»(1)، فإن أول شعر علق على أركان الكعبة هو شعر امرؤ القيس وتبعه الشعراء بعد ذلك.

ويرى ابن عبد ربه أنه بلغ من شغف العرب بالشعر أن «عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها على أستار الكعبة، فمنهم من قال مذهبة امرؤ القيس، ومذهبة زهير، والمذهبات السبع، وقد يقال لها المعلقات»(2)، ففي قول ابن عبد ربه يتضح ان التسمية الشائعة هي "المذهبات"، ثم اضاف ان هناك من يسميها المعلقات، ويرى أنها سميت بالمعلقات لأنها علقت على أستار الكعبة وكتبت بماء الذهب، فاختار العرب سبع قصائد من أروع ما كتب الشعراء وكتبوها بماء الذهب، إجلالا وتعظيما لها، ولما بلغت من البراعة والإتقان.

أما ابن رشيق فيقول: «المعلقات تسمى المذهبات وذلك لأنها اختيرت عن سائر الشعر، فكتبت في القباطي بماء الذهب، وعلقت على الكعبة، لذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره، ذكر ذلك غير واحد من العلماء وقيل بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول: «علقوا لنا

1- سامي يوسف أبو زيد ومنذر ذيب كفافي، الأدب الجاهلي، ص116.

2- ابن عبد ربه،العقد الفريد، ج5، تحقيق بركات يوسف عبود، ط1، دار الأرقم، بيروت 1999. ص169.

هذه ليكون في خزانته»[1]، فابن رشيق وافق ابن عبد ربه على ما ذهب إليه، فهو كذلك يرى أن المعلقات أجود ما قيل في الشعر العربي، وكتبت كذلك بماء الذهب، كما ارتبطت هذه المعلقات بالشاعر وذلك في قوله "مذهبة فلان"، بمعنى معلقة امرؤ القيس، معلقة زهير، معلقة طرفة ... وغيرها.

ويذهب ابن خلدون إلى أن تسميتها بالمعلقات من تعليقها على الكعبة، قال: «حتى انتهوا أي العرب إلى مناغاة لتعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام، موضع حجمهم وبيت أبيهم إبراهيم، كما فعل امرؤ القيس بن حجر، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، وطرفة بن العبد، علقمة بن عبدة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع، فإنه إنما كان يتوصل بتعليق الشعر بها، ما كان له القدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر»[2].

إن أهم ما أشار إليه ابن خلدون في هذا القول أن سبب وضع المعلقات يرجع إلى العصبية القبلية والقوة التي كانت سائدة عند العرب في العصر الجاهلي، فقد كان سوق عكاظ مسرحا ينشد فيه الشعراء أشعارهم، وأرقى هذه الأشعار يتم تعليقها على أستار الكعبة، كما يشير ابن خلدون أيضا أن سبب تعليقها على أركان الكعبة لا يعود إلى جودتها وتميزها وإنما يعود إلى القوة والعصبية، وهذا مخالف لما تم تداوله.

وقد جاء في خزانة الأدب للبغدادي: «وكان العرب في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبأ به، ولا ينشده أحد حتى يأتي ما كتم في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش، فإن استحسنوه روى، وكان فخرا لقائله، وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه، وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب، قال أبو عمر بن العلاء، وكانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش»[3]، يتفق البغدادي مع ابن خلدون في أن سبب تسمية المعلقات

1- أبو الحسن ابن رشيق القيرواني الأردني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، دار الجيل، ط5، بيروت 1981. ص96.

2- عبد الرحمن عبد الحميد علي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، دار الكتاب للحديث (ب ط)، القاهرة 2008. ص147.

3- عبد الرحمن عبد الحميد علي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، ص147-148.

هو أنها علقت على الكعبة إلا أنه يختلف في سبب اختيار المعلقات الذي يرجعه ابن خلدون إلى سبب سياسي اجتماعي، فالبغدادي أرجعه إلى المستوى الفني الرفيع للمعلقات.

ويذكر أحمد الاسكندري أن السبب في تسمية هذه القصائد بالمعلقات أن: «العرب لم تكن تكتب في دفاف، وإنها لم تكتب قبل القرآن كتابا مدققا، وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير والجلد أو الكاغد، يوصل بعضها ببعض، ثم تطوى على عود أو خشبة، وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الأرض حرصا عليها من قرض فأرة، أو عث أو نحو ذلك من دواب الأرض»[1]، فالاسكندري يخالف جميع الروايات السابقة، ولم يذكر أنها علقت على أركان الكعبة وإنما السبب في تسميتها معلقات هو أن العرب في العصر الجاهلي لم تكن تكتب أو تجمع أشعارها في دفاف وإنما كانت تكتب في رقاع حرير أو جلد وغيرها، ثم تعلق هذه القصائد في رواق الخيمة بعيدا عن الأرض أين لا تصلها الحشرات حتى لا تتلفها.

هذا عن سبب تسميتها بالمعلقات أما تحديد هذه القصائد فقد اختلف فيها الدارسون كذلك، فرواية حماد للمعلقات سبع قصائد وهي لامرئ القيس وزهير ولبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة العبسي وطرفة بن العبد، وتتفق رواية المفضل الضبي للمعلقات مع رواية حماد من حيث العدد، ولكنها تختلف عنها من حيث الشعراء، فقد أسقط منها معلقتي الحارث بن حلزة وعنترة العبسي، وأدرج مكانهما معلقتي الأعشي والنابغة، أما رواية التبريزي فقد جمعت بين روايتي حماد والمفضل، وأضافت إليهما قصيدة أخرى لعبيد بن الأبرص، وبذلك اكتملت المعلقات إلى عشرة[2]، كما عدها أبو زيد القرشي ثمانية، والانباري عدها سبعة قصائد وهي "السبع الطوال"، وهي قصيدة امرؤ القيس، وقصيدة طرفة بن عبد وقصيدة عنترة بن شداد وقصيدة زهير بن أبي سلمى، وقصيدة عمرو بن كلثوم، وقصيدة الحارث بن حلزة وقصيدة لبيد بن ربيعة. ويحددها ابن عبد ربه في سبعة قصائد هي:

- "لامرئ القيس: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
- لزهير: أمن أم أوفى دمنه لم تكلم
- لطرفة: لخولة أطلال ببرقة تهمر

1- المرجع نفسه، ص148.

2- ينظر: سامي يوسف أبو زيد ومنذر ذيب كفافي، الأدب الجاهلي، ص115.

- لعنترة: يا دار عبلة بالجواء تكلمي
- لعمرو بن كلثوم: ألا هبي بصحنك فأصبحينا
- للبيد: عفت الديار محلها فمقامها
- للحارث بن حلزة: آذنتنا بينها أسماء"[1]

وقد شرح هذه القصائد جماعة ذكر منهم صاحب كشف الظنون أبا جعفر الناس، وأبا على الثعالبي، وأبا بكر البطليوسي، وأبا زكريا بن الخطيب التبريزي صاحب حياة الحيوان، والزوزني وشرحه مطبوع متداول، وهي مشروحة أيضا في كتاب الجمهرة، ولابن الانباري عليها شرح مفرد[2]، ومهما كانت الاختلافات في تسمية المعلقات واختلافهم في عددها، تبقى من أروع وأجود وأنفس الأشعار التي قيلت في الشعر العربي القديم، وهي ذات شهرة واسعة على مر العصور فقد كانت من أدقه معنى وأبعده خيالا وأبرعه وزنا وأصدقه تصويرا للحياة التي كان يعيشها العربي في عصره قبل الاسلام، وتحتل المعلقات مكانة متميزة في الشعر العربي على مر العصور، فهي تستخدم كمرجع تاريخي لحضارة ومجتمع الأمة العربية في العصر الجاهلي نظرا لما تحمله من تراث أدبي حافل. ومعلقة أمرؤ القيس أكثر المعلقات السبع حيوية وحتى درامية، تقدم سلسلة مشاهد حياة الصحراء، مصورة بدقة، لهذا عمدنا إلى اختيارها باعتبارها أهم هذه القصائد لتكون موضوع بحثنا لدراستها دراسة تداولية نظرا لما تحمله من سمات أدبية ولغوية وفنية متميزة.

1- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج5، ص169.

2- ينظر: مصطفى صادق الرفاعي، تاريخ آداب العرب، ج3، المكتبة العصرية، (ب ط)، صيدا، بيروت 2005. ص170.

الفصل الثاني

الــذاتيــة فـــي مــعــلــقــة امــرئ الــقــيــس

مقدمة تمهيدية

في دراسة المعلقة

التعريف بالشاعر

المعلقة وظروف نظمها

المحور الأول: الإشــاريــات

- الضمائر
- المتكلم
- المخاطب
- الغائب
- أسماء الإشارة
- ظرف الزمان
- ظرف المكان
- ألفاظ القرابة

المحور الثاني: الــذاتــيــات

- الأحكام القيمية والوصفية

مقدمة تمهيدية:

لقد سبق وأن أشرنا في الفصل الأول إلى أن الذاتية هي مجموع الآثار اللّسانية والدلالية التي يتركها المتكلم في خطابه، والتي تشير إلى شخصيته وهويته باعتباره صاحب الخطاب، ولا نكاد نجد نصا يخلو من الآثار اللّسانية الدالة على الذاتية. ويعتبر اللّساني "بنفنيست" المؤسس الفعلي للذاتية في اللسانيات التداولية، وترتبط الذاتية عنده بعملية التلفظ، فهي تتحد أثناء عملية الكلام أو التلفظ، فمن خلال كلام المتكلم وأرائه وأفكاره، يتبين مدى التزامه بملفوظة الذي لا يخلو من الذاتية.

ويرى "بنفنيست" أن الذاتية تتمحور حول قضية الضمائر باعتبارها الركيزة الأساسية في اللغة، والتي تشترك مع عناصر أخرى على غرار أسماء الإشارة، الحال أو النعت، ظروف المكان والزمان، ومعرفتها يتطلب معرفة السياق الذي وردت فيه[1]. فعناصر الذاتية حسب تصنيف بنفنيست تتمثل أساسا في الضمائر بالإضافة إلى عناصر أخرى كأسماء الإشارة، ظروف الزمان والمكان، الحال أو النعت.

كما اقتفت "اوريكيوني" خطى بنفنيست في البحث عن عناصر الوحدات الذاتية في اللّغة، وذلك من خلال محاولتها احصاء العناصر اللّسانية الدلالية التى تشير إلى شخصية المتكلم، وكان ذلك بتوسيع عناصر الوحدات الذاتية، حيث قامت بتقسيم عناصر الذاتية الى قسمين وهما:

الاشاريات : Déictiques

الذاتيات : Subjèctivemes

وتتدرج ضمن هذه العناصر عناصر فرعية كثيرة وهي :

- الضمائر
- المتكلم
- المخاطب
- الغائب
- أسماء الإشارة

1- Beveniste, problème de l'linguistique générale,p.262.

- ظروف الزمان

- ظروف المكان

- ألفاظ القرابة الأسرية

- العبارات ذات القيم النعتية والقيمية (Les expressions porteurs d'evoluation) [1].

والملاحظ على تقسيم "أوريكيوني" لعناصر الذاتية أنها حاولت أن تلم بجميع الآثار اللّسانية التي يتركها المتكلم أثناء كلامه لتدل على هويته أو شخصيته. "فأروكيوني" أضافت عنصري ألفاظ القرابة التي عدتها إشاريات تعبر عن الذاتية بمجرد أن يتلفظ بها المتكلم أو يشير بها إلى مخاطب سواء اعتمد المتكلم على معين مسبق أو لم يعتمد على معين مسبق، بالإضافة إلى الأحكام التقيمية والوصفية المتمثلة في جميع والأحكام الأوصاف التي يطلقها المتكلم على الموضوعات الخارجية، فهي تدل على شخصية المتكلم ممثلة بصورة لسانية، التي تتمثل في استعمال الصفات أو النعوت وجميع الصور الفنية والجمالية التي تتحكم فيها وبشكل كبير شخصية المتكلم وحالته النفسية تجاه الموضوع المراد الحكم عليه. وهذا التقسيم الذي سنبني عليه دراستنا وتحليلنا للمدونة المتمثلة في معلقة "امرئ القيس" حيث سنحاول أن نتتبع جميع الآثار اللسانية التي توحي إلى الذاتية أي ذاتية الشاعر، كما سنحاول أن نوضح البعد الذاتي للمعلقة التي سندرسها دراسة تداولية.

وباعتبار الشعر الجاهلي معظمه إن لم نقل كلّه ذاتيا، وهذا راجع إلى شخصية الشاعر وذاتيته التي غالبا ما تستند إلى ذاتية القبيلة، وتتمثل في المعلقة ببكاء الشاعر على الأطلال وذكره لحزنه على فراق أحبابه ورؤيته للمنازل المهجورة، بالإضافة إلى الغزل الذي يطغى على نصف أبيات المعلقة ومواضيع أخرى كالفخر والوصف. وقبل أن نتطرق إلى دراسة عناصر الذاتية في المعلقة نقدم تعريفا موجزا للشاعر وللمعلقة، كما سنقوم بشرح ظروف نظمها.

1- Kerbrat- Orecchioni, l'énonciation de la subjectivité dans la langage, p.49.

في دراسة المعلقة

1- التعريف بالشاعر :

هو« جندح بن حجر بن عمرو الكندي الملقب بامرئ القيس، ويقال له الملك الضليل وذو القروح، ولد بنجد نحو سنة 500م من أصل يمني وكان أبوه ملكا على بني أسد وغطفان وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب والمهلهل التغلبيين وإذا لم يسر مسيرة أبناء الملوك طرده أبوه فتشرد وتبذل» [(1)]. فشب امرؤ القيس في كنف والده حجر الذي كان ملكا على كنده، وهي من المماليك القليلة التي ظهرت في العصر الجاهلي الذي تميز بالعصبية القبلية التي سادت سكان شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة، وتميزت المرحلة الأولى من حياة امرئ القيس بالميل إلى الترف، حيث شب في نعيم فراح يعاقر الراح ويغازل النساء ويعشق اللهو، فأطلق العنان لنفسه في المجون الذي قاده إلى قول الشعر، فحاول أبوه أن يردعه، فكان ينهاه عن قول الشعر لأنه بالنسبة لسادة العرب في الجاهلية مصدر خمول وفساد للعقل في اعتقادهم خاصة إذا كان الشعر يدور حول الغزل بالفتيات والتشبيب بهن، لكنه لم يرتدع فطرده من بيته، فراح يخالط العرب اللذين يرتادون الرياض ويلعبون ويعاقرون الخمر ويصيدون، فكان يتجول من مكان إلى مكان طالبا اللهو والمجون.

ولم يستمر امرؤ القيس طويلا في حياة اللهو والمجون، إذ سرعان ما انهارت مملكة أبيه وقد نقمت عليه قبيلة بني أسد وقتلته، ويقال أن لما وصله خبر مقتل أبيه ثارت ثائرته وقال مقولته المشهورة «ضيعني صغيرا، وحمّلني دمه كبيرا، لا صحو اليوم و لا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر» [(2)]. وحلف على نفسه ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا، حتى يدرك ثأر أبيه. فلبس رداء الحرب فراح يستنجد القبائل منها قبيلتي بكر وتغلب فأعانوه، ولكنه لم يقنعه ما فعلت بكر وتغلب وواصل البحث في قبائل العرب طالبا المساعدة، وقد سافر إلى بلاد الروم للحصول على دعم ملك الرومان بالقسطنطينية، وبذلك فقد قضى كل حياته في حرب مع قبيلة بني أسد وحلفائها.

1- الحسين بن احمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، دارالجيل ط1، بيروت 2005.ص6

2- امرؤ القيس بن حجر، الديوان، عناية وشرح عبد الرحمان المصطفاوي، دار المعرفة، ط 2 بيروت، لبنان 2004. ص10 .

وتختلف بعض المصادر حول رواية موت امرئ القيس، حيث نجد رواية تقول أن رجلا من بني أسد كان يضمر الحقد له لذلك قرر الانتقام منه، فذكر للقيصر ملك الروم أن امرأ القيس كان يراسل ابنته ويواصلها، فأرسل إليه عباءة مسمومة، فلما لبسها جرى فيه السم فتقرح جسمه وهو سبب وفاته، لذلك سمي بذي القروح.

ويعتبر من شعراء الطبقة الأولى في العصر الجاهلي إلى جانب كل من زهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني والأعشى، وقد اختلفوا في تقديم أحدهم على طبقته، وفضل كثير من الأدباء امرأ القيس أكثر من الذين فضلوا سواه، ومن بين هؤلاء الأدباء ابن رشيق القيرواني يقول، ولكل واحد منهم طائفة تفضله وتتعصب له، فقلما يجتمع على واحد إلا ما روي عن النبي _صلى الله عليه وسلم _في امرئ القيس أنه "أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار" كما يروى أن عليا _كرم الله وجهه_ فضله على شعراء الجاهلية لأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة، وكذلك عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_ وابن سلام الجمحي شهدوا لامرئ القيس بالأسبقية.[1]

وتكمن قيمة امرئ القيس في أنه هو الذي نهج للشعراء الجاهليين من بعده الحديث في بكاء الديار، والغزل الصريح ووصف الليل والخيل والفرس والطبيعة، كذلك الشكوى من الدهر، بالرغم أنه سبق إلى هذه الأغراض إلا أنه هو الذي أعطاها النسق النهائي، مظهرا في ذلك مهارة فنية وجمالية، جعلت الكثير الدارسين يجمعون على تقدمه وقد اهتم بشعره القدماء واحتفوا به نقدا ودراسة وتقليدا، كما نال اعجاب المحدثين من العرب والمستشرقين.

2- المعلقة وظروف نظمها:

تعد معلقة امرئ القيس أشهر المعلقات الجاهلية، وتعد أفضل تراث أدبي ورثه العرب من شعر الجاهلية، عني بها الدارسون من عرب ومستشرقين بوصفها أقدم قصيدة جاهلية وصلت الينا ويعدون ابتداؤها أفضل إبتداء من مطالع الشعر العربي، و قد بلغت من الشهرة في عالم الأدب والشعر منزلة ليست لغيرها، حتى جعلت مثلا أعلى في الجودة، حتى ضرب بها المثل في الحسن والشهرة فقيل أشهر من "قفا نبك" وأحسن من "قفا نبك"، ولا تزال هذه المعلقة

1- ينظر: امرؤ القيس، الديوان، ص11 .

معينا يستمد منه الأدب العربي ثورة جديدة، وركينا يقيم عليه صروح مجده في الماضي والحاضر. فمعلقة امرؤ القيس عماد قام عليه الأدب العربي في القديم والحديث، ومثال احتذاه الأدباء في كل جيل فلا نجد كتابا في اللغة والأدب باختلاف أنواعها وأشكالها إلا ولامرئ القيس فيه أبيات يتمثل بها، ويحتج بها، ويشار بها إلى مواطن الجمال الباهر والفن الساحر فيها.

أما عن ظروف نظمها فتشير معظم الروايات[1] إلى أن امرأ القيس قال معلقته بعد القصة التي وقعت له مع ابنة عمه عنيزة في الغدير وكان امرؤ القيس يعشق عنيزة وكان يتحين الفرص للإجتماع بها، ونجد في المعلقة أن قسما معتبرا منها يدور حول ما سمى بـــ "دارة جلجل"، وهي قصة وقعت للشاعر مع حبيبته عنيزة في ذلك اليوم، وقد رواها ابن قتيبة على النحو التالي : "إن امرأ القيس كان عاشقا لا بنة عمه يقال لها عنيزة وأنه طلبها زمانا فلم يصل إليها حتى كان يوم الغدير وهو يوم دارة جلجل، وذلك أن الحي احتملوا فتقدم الرجال وتخلف النساء والخدم والثقل فلما رأى ذلك امرؤ القيس تخلف بعدما سار مع رحالة قومه غلوة فكمن في غيابة من الأرض حتى مر به النساء وفيهن عنيزة فلما وردن الغدير قلن : لو نزلنا فاغتسلنا في هذا الغدير فذهب عنا بعض الكلال فنزلن في الغدير ونحين العبيد ثم تجردن فوقعن فيه فأتاهن إمرؤ القيس وهن غوافل فأخذ ثيابهن فجمعها وقعد عليها وقال: والله لا أعطي جارية منكن ثوبها ولو ظلت في الغدير يومها حتى تخرج متجردة فتأخذ ثوبها، فأبين ذلك عليه حتى تعالى النهار وخشين أن يقصرن عن المنزل الذي يردنه فخرجن جميعا غير عنيزة فناشدته الله أن يطرح إليها ثوبها فأبى فخرجت فنظر إليها مقبلة ومدبرة وأقبلن عليه فقلن له، إنك قد عذبتنا وحبستنا وأجعتنا قال : فإن نحرت لكن ناقتي تأكلن منها قلن: نعم فخرط سيفه فعرقبها ونحرها ثم كشطها وجمع الخدم حطبا كثيرا فأججن نارا عظيمة فجعل يقطع لهن من أطايبها ويلقيه على الجمر ويأكلن ويأكل معهن ويشرب من فضلة خمر كانت معه ويغنيهن وينبذ إلى العبيد من الكباب فلما

1- ينظر: على سبيل المثال لا الحصر :

- أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، مج9، دار صادر، ط 1، بيروت، لبنان 2004.ص60.

- أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، ج1، دار صادر، 1904. ص49-50.

أرادوا الرحيل قالت احداهن: أنا أحمل طنفسته وقالت الأخرى: أنا أحمل رحله وأنساعه فتقسمن متاع راحلته وزاده وبقيت عنيزة لم يحملها شيئا فقال لها يا ابنة الكرام لا بد أن تحمليني معك فإني لا أطيق المشي فحملته على غارب بعيرها وكان يجنح اليه فيدخل رأسه في خدرها فيقبلها فإذا امتنعت مال خدرها فتقول : عقرت بعيري فانزل ففي ذلك يقول:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة	**فقالت لك الويلات إنك مرجلـــي**
تقول وقد مال الغبيط بنا معا	**عقرت بعيري يا إمرأ القيس فانزل**
فقلت لها سيري وأرخي زمامه	**ولا تبعد ينـــا من جنـــاك المعلّـــل**[1]

وقد ذكر الزوزني أن المعلقة كانت مما قاله في تلك المنسبة[2].

وتحوي المعلقة كثيرا من فنون الشعر، كما تحتوى على كثير من الأفكار المنوعة، ففيها بكاء على الأطلال التي تركها أحبابه وتصوير لحيرته وحزنه عليها، كما ذكر قصصه وذكرياته مع معشوقاته، وصف الجمال وأثره في النفوس، كما وصف فيها الليل، والفرس والخيل والطبيعة. وقد اختلف الرواة في عدد أبياتها، فهي برواية الأصمعي سبعة وسبعون بيتا وفي شرح المعلقات السبع للزوزني واحد وثمانون بيتا.

ويمكن أن نقسم المعلقة إلى سبعة أقسام، يشغل الغزل نصف الأبيات وهي:

القسم الأول: وصف الأطلال أو ما يعرف بالمقدمة الطللية وتقع في ستة أبيات أولها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل	**بسقط اللّوى، بين الدّخول فحومل**
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها	**لما نسجتها من جنوب وشمـــأل**
ترى بعـــر الآرام فـــي عرصاتهـــا	**وقيعانهـــا كأنـــه حـــب فـــلفـــل**
كأني غداة البيـــن يـــوم تحمّلـــوا	**لدى سمرات الحي ناقف حنظـــل**
وقوفا بها صحبي علي مطيهـــم	**يقولون لا تهلـــك أســـى وتجمّل**
وإن شفـــائـــي عبـــرة مهراقـــة	**فهل عند رســـم دارس من معـــوّل**[3]

1- ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، ج1، ص49-50.
2- ينظر: الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص8.
3- ينظر : امرؤ القيس، الديوان، ص 23-24.

القسم الثاني: وفيه ينتقل الشاعر إلى الغزل الصريح، وقد طغى هذا الغرض على نصف أبيات القصيدة، وفيه يذكر أسماء معشوقاته، ويذكر محاسن الجمال لديهن، وقصة دارة جلجل وأوله يقول:

كد أبك من أم الحويــرث قبلهــا　　　وجارتهــا أم الربــاب بمأســل
إذا قامتا تضوغ المســك منهــا　　　نسيم الصبا جاءت بريا القرنفــل
ففاضت دموع العين مني صبابة　　　على النحر حتى بل دمعي محملي
ألارب يوم لك منهــن صالــح　　　ولاسيمــا يــوم بدارة جلجــل

وينتهي هذا القسم عند البيت:

ألا رب خصم فيك ألوى رددتــه　　　نصيح على تعذاله غيــر مؤتــل[1]

القسم الثالث: ينتقل الشاعر إلى الوصف، فوصف الليل الذي يكابده ويشكو همه وهو أربعة أبيات:

وليل كموج البحر أرخى سدوله　　　علي بأنواع الهمــوم ليبتلــي
فقلت له لمــا تمطــى بجــوزه　　　وأردف أعجازا وناء بكلكــل
ألا أيها الليــل الطويــل ألا نجــل　　　بصبح وما الأصباح منك بأمثل
فيا لك من ليــل كــأن نجومــه　　　بكل مغار الفتــل شــدت بيــذل[2]

القسم الرابع: يفتخر الشاعر بتحمله كل صديق، وبتجسمه مخاطر الطريق ومقابلته الذئب ومقارنته بنفسه وهو أربعة أبيات أيضا هي:

وقربة أقوام جعلت عصامهــا　　　علــى كاهــل منــى ذلــول مرحــّل
وواد كجوف الغير قفر قطعتــه　　　به الذئــب يعوي كالخليــع المعيّــل
فقلت له لما عوى، إن شأننــا　　　قليــل الغنــى إن كنتــا لمــا تمــوّل
كلانا إذا ما نال شيئــا أفاتــــه　　　ومن يحترث حرثي وحرثك يهــزل[3]

1- امرؤ القيس، الديوان، ص25.

2- المصدر نفسه، ص 51-50.

3- نفسه، ص54.

القسم الخامس : وفيه وصف الشاعر وصفا دقيقا لفرسه، يذكر سرعته ونشاطه وقوته، كما يذكر صفاته كحمرته وطول فخذيه ويبدأ هذا القسم بقوله:

وقد اغتدى والطير فـــي وكناتها بمنجــرد قيــد الأوابــد هيــكــل
مكــرّ مفرّ مقبل مــدبــر مــعا كجلمود صخر حطه السّيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنــه كما زلــت الصفــراء بالمتنــزل

و ينتهي عند قوله:

كأن دماء الهاديات بنحــره عصارة حنــاء بشيــب مرجــل[1]

القسم السادس: وصف البقر الوحشي فهو أبيض، مرقط ببعض السواد ويصف مشيه، كما يصف أعداد الطهاة للطعام، والعودة من رحلة الصيد

فيبد أهذا القسم في قوله:

فعــن لنا سرب كــأن نعاجــه عذارى دوار في ملاء مذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم في العشيرة مخول
فألحقنا بالهاديــات ودونــه جواحرها في صرة لم تزيل

وينتهي هذا القسم عند قوله:

فبات عليه سرجه ولجامــه وبات بعيني قائما غير مرسل[2]

القسم السابع: وصف الطبيعة، يصف الشاعر البرق، المطر، والجبل فيقول:

أصاح ترى برقا أريك وميضــه كلمع اليدين في حبــي مكلــــل
يضئ سناه أو مصابيح راهــب أمال السليط بالذبــال المفتــــل
فأضحى يسح الماء حول كتفيه يكب على الذقان دوح الكنهبــل
كأن مكاكــي الجــواء غديــة صبحن سلفا من رحيق مفلفــل
كأن السّباع فيه غرقى عشيــة بأرجائه القصوى أنابيش عنصل[3]

1- امرؤ القيس، الديوان، ص 60 - 61 .

2- المصدر نفسه، ص 67- 68.

3- نفسه، ص 68 – 69.

والمتأمل في معلقة امرئ القيس، يجد أنه انتقل من غرض إلى غرض دون تمهيد، فوقف على الأطلال وبكى الديار ثم انتقل إلى الغزل ووصف فيه ما كان يفعله مع محبوباته، ثم انتقل إلى الوصف فوصف الليل والفرس والطبيعة.

الذاتية في معلقة امرئ القيس

المحور الأول: الاشاريات :

ونعني بالإشاريات مدى ظهور المخاطب والسياق الزماني والمكاني في الخطاب، وذلك بتتبع جميع العناصر الإشارية على غرار الضمائر وظروف الزمان والمكان وأسماء الإشارة وما تحيل عليه في السياق الذي وردت فيه، فهي بذلك تعتمد على السياق القائم بين العلاقات الموجودة بين المتكلم والمخاطب أثناء العملية التواصلية وفك شفرات الإشاريات يقتضي وجود المتكلم في زمان ومكان الحديث، ومن خلال الإشاريات يحاول الشاعر اكتساب خطابه من أجل استمالة المتلقي وتدعيم علاقته به، وهذا ما يجعله يتعاطف معه ويكسبه إليه من خلال اقناعه وذلك باستعمال هذه الوحدات اللسانية.

1- الضمائر:

إن المتأمل لمعلقة امرئ القيس يجدها تحفل بعناصر الذاتية والمتمثلة بشكل كبير في عنصر الضمائر الذي قال عنها "بنفنيست" أنه لا تخلو أية لغة من عنصر الضمائر نظرا للأهميتها في تحديد دلالة ومرجعية الأشياء المتحدث عنها انطلاقا من السياق الذي وردت فيه، فالشاعر امرؤ القيس في معلقته انطلق من شخصه أو ذاته، وذلك من خلال تعبيره عن معاناته واشتياقه وحزنه عند وقوفه على الأطلال وعلى المنازل المهجورة، وسرده لمغامراته مع عشيقاته، ووصفه لجميع المظاهر التي كانت تعني له حدثا مهما في حياته كاليل والفرس والطبيعة وغيرها.

والضمائر وتسمى أيضا بالإشاريات الشخصية تتمثل في ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب سواءا كانت متصلة أو منفصلة، وضمائر المتكلم والمخاطب تعرف بضمائر الحضور لأن صاحبها يكون حاضرا وقت التلفظ بالخطاب، فهو حاضر يتكلم بنفسه أي يعبر عن ذاته، أو

يكون حاضرا في السياق نفسه، أو أن المتكلم يستحضر المخاطب وقت الكلام فيخاطبه كأنه يراه ويشاهده أمامه، "فضمير المتكلم ضمير المخاطب تفسرها المشاهدة"[1].

وننطلق في تحليلنا لمختلف طرق استعمال الضمائر في المعلقة من أن امرأ القيس نظم معلقته انطلاقا من قصته التي حدثت له مع ابنة عمه عنيزة "بدارة جلجل" وبالتالي فهو يسرد مغامراته مع عشيقته من خلال استعماله لغرض الغزل الذي يطغى على القصيدة فهو يسرد تجربته الشخصية من خلال استخدامه للضمائر خاصة المتكلم التي تعود إلى ذاته وشخصيته، بالإضافة إلى مقدمته الطللية ووقوفه على الأطلال ودعوته أصدقائه ليتضامنوا معه ويساعداه على البكاء، كما يستحضر بعض الذوات وكأنه يشاهدها ويجالسها.

أ) ضمائر المتكلم:

إن ما يلاحظ على ضمائر المتكلم سواء أكانت مفردا أو جمعا في هذه المعلقة أن الشاعر لم يستعملها منفصلة فلا نجد الشاعر يقول "أنا" التي تحيل إلى هويته وشخصيته، ولا نجده يستعمل ضمير الجمع "نحن" التي تعود على المتكلم أي الشاعر وآخرون وهذا راجع إلى أن الشاعر لا يفتخر بنفسه لأن ضمير المتكلم المنفصل مرتبط بشكل كبير بالفخر الشخصي وهذا ما لا نجده في القصيدة وحتى في المقدّمة الطللية أو في حديثه عن الغزل وحتى عند استعماله للوصف لا نجده يوظف الضمير المنفصل، وفي المقابل نجده يستعمل الضمير المتصل المفرد والجمع بشكل كبير، حيث طغى الضمير المتصل خاصة المفرد على قسم كبير من أبيات القصيدة وفي كل أقسامها المختلفة، وضمير المتكلم المتصل يحيل على ذات الشاعر، وليس له دلالة في ذاته ولكن ينسب إلى المتكلم والمتحدث، وهذا الضمير يجسد وظيفة الخطاب الخاصة، وقد ورد في معظم الأبيات متصلا مع الفعل الماضي ليحمل وظيفة الفاعلية، كما ورد أيضا مرتبطا بالفعل الذي فاعله مستتر ليحمل وظيفة المفعولية.

واستعمال ضمير المتكلم أهم مؤشر يعبر عن الذاتية في المعلقة، ولا بد أن نشير إلى أن استعماله جاء بطريقتين:

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استاتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص83.

1- حاملا معنى التلفظ أي المتكلم جعل اللّغة لصالحه.

2- يتضح أن ضمير المتكلم المفرد هو الأكثر توظيفا مقارنة مع ضمير المتكلم الجمع.

ولبيان ورود ضمير المتكلم المفرد المتصل في المعلقة نورد قول الشاعر:

كأني غداة البين يوم تحملـــوا   لدى سمرات الحي ناقف حنظـــل
وقوفا بها صحبي عليّ مطيهم   يقولون: لا تهلك أسى، وتجمّـــل
وإن شفائـــي عبـــرة مهراقـــة   فهل عند رسم دارس من معـــوّل

فالشاعر في هذه الأبيات يسند الأقوال إلى نفسه، فهو بذلك يمتلك اللّغة من خلال قوله كأني، عليّ، شفائي، وهنا يظهر الضمير متصلا بالاسم، فهو بذلك يتكلم عن نفسه ويصف حالته بعد رحيل أحبابه، ووقوفه في حيرة وشبه نفسه بجاني الحنظلة، وهذا ما جعل أحبابه يواسونه ويطلبون منه الصبر وعدم الحزن وينهونه عن الجزع، ويرى أن بكاءه هو مخلصه الوحيد من محنته وحزنه.

وفي قوله:

ففاضت دموع العين مني صبابة   على النحر حتى بل دمعي محملي
ويوم عقـــرت للعـــذارى مطيتـــي   فيا عجبا مـــن كورهـــا المتحمّـــل
ويوم دخلت الخدر خـــدر عنيـــزة   فقالت لك الويلات إنـــك مرجلـــي
فقلت لها سيري وأرخي زمامـــه   ولا تبعديني مـــن جنـــاك المعلـــّل
فمثلك حبلى قد طرقت ومرضـــع   فألهيتها عـــن ذي تمـــائم محـــول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له   بشق وتحتـــي شقّـــها لـــم يحـــوّل
ويوما على ظهر الكثيب تعـــذرت   علـــي وآلـــت خلفـــة لـــم تحلـــّل

في هذه الأبيات يواصل الشاعر اسناد الكلام إلى نفسه، فهي بذلك تحمل معنى التكلم، فتظهر هنا الضمائر جليا متصلة بالفعل الماضي فيحمل الضمير في هذه الحالة وظيفة الفاعلية، حين يتكلم عن شوقه وحنينه إلى محبوباته حتى فاضت دموع عينه. كما استعمل الشاعر ضمير المفرد لسرده لواقعة دارة جلجل وما وقع له مع حبيبته عنيزة والحوار الذي جرى بينهما وعليه نجده في البيت الرابع يسند الفعل إلى المخاطب مخاطبا بذلك عنيزة بأن لا تبعده عن اللّحظات التي يعيشها معها، وبالرغم من هذا الاسناد إلاّ أن الشاعر استعمل الضمير المفرد ولم ينو

التضامن مع المخاطب عنيزة لأن سياق الخطاب لا يسمح بالتضامن مع المخاطب فهو بصدد ذكره ما كان يعيشه من لحظات حلوة مع عشيقته. وهو ما يظهر أيضا في الأبيات التالية:

أفاطم مهــلا بعض هــذا التدلــل	**وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي**
أغــرّك منـــي أن حبــك قاتلـــي	**وأنك مهما تأمــري القلــب يفعــل**
وإن تك قد ساءتك منـــي خليقـــة	**فسلّي ثيــابي مــن ثيابــك تنســل**
وبيضة خــدر لا يـــرام خباؤهـــا	**تمتعت من لهو بها غيــر معجّــل**
تجاوزت أحراسا إليها ومعشـــرا	**عليّ حراصا لو يســرّون مقتلـــي**
فجئت و قد نضت لنـــوم ثيابهـــا	**لدى الستر إلا لبسهـــة المتفضّــل**
خرجـــت بها أمشي تجر وراءنـــا	**على أثـــرينا ذيــل مـــرط مرحـــّل**
هصرت بفودي رأسها فتمايلـــت	**على هضيم الكشــح ريـّـا المخلّــل**
تسلت عمايات الرجال عن الصبا	**وليس فؤادي عــن هواك بمنســل**
ألا رب خصم فيك ألوى رددتـــه	**نصيح على تعذالــه غيــر مــؤتــل**(1)

يستعمل الشاعر ضمير المتكلم المفرد عند حديثه عن ابنه عمه فاطمة وهو اسم من أسماء "عنيزة" التي تصد عنه وتتدّلل عليه، وكأنه تريد أن تذله، إذا شعرت بعظم حبه لها، فيخيّرها بين الفراق والبقاء، وهذا التضاد يتمثل في عزمه على القطيعة ودعوته إلى التجمل، ويلعب ضمير المتكلم في هذه الأبيات دورا كبيرا في بيان حسرة الشاعر وحزنه وتجربته مع عتيرة التي آلمته من كثر دلالها واذلالها له، كما استعمل الضمير لبيان انتصاراته في هذه المغامرة، إذ تجاوز في ذهابه إلى المرأة التي فتنته أهوالا كثيرة تتمثل خاصة في مواجهته الموت بتحديه لقومها الذين يمنعونه من زيارته لها ويحرصون على قتله.

والملاحظ في هذه المقاطع أنّها تطغى عليها لهجة التفرد، فالشاعر من كثرة تعلقه بابنة عمه، فهو يعاني دوّامة من المعاناة وعبء الدمع، فضمير المتكلم المفرد طغى على هذه المقاطع التي تغنى بها بالحبيبة، وتأتي بعض الأبيات تصف حالة الشاعر وكأنه في حالة تفاعل مع الحبيبة وكأنها أمامه تشاهده وتراه وهو يترجّاها أن ترأف بحاله، وبالتالي فهو يرسم لوحة فنية، ويدعو القارئ لتخيلها.

1- ينظر: امرؤ القيس، الديوان، ص 35 و ما بعدها

ويقول أيضا:

وليل كموج البحرأرخى سدوله	**عليّ بأنواع الهموم ليبتلــــي**
فقلـــت له لما تمطى بصلبـــه	**وأردف أعجازا وناء بكلكــل**

استعمل الشاعر ضمير المتكلم المتصل وذلك حينما انتقل من الغزل إلى الوصف والتمدح بالصبر والجلد، وقد شبه الشاعر ظلام الليل في هو له وصعوبته بأمواج البحر، وقد أرخى عليه ستور ظلامه مع أنواع الأحزان، ليختبره أيصبر على ضروب الشدائد وفنون النوائب أم يجزع منها، وقد ارتبط الضمير في هذه الأبيات إذ نجده يمدح نفسه بالصبر والتجمل، كما يواصل في غرض الوصف في الأبيات التالية:

وقربة أقوام جعلت عصامهـــا	**على كاهل مني ذلـــول مرحـــل**
وواد كجوف العير قفر قطعتـــه	**به الذئب يعوي كالخليع المعيّـــل**
فقلت له لمّا عوى: إن شأننــــا	**قليل الغنى إن كنت لمـــا تمـــوّل**
كلانا إذا ما نال شيئـــا أفاتـــه	**ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل**

فنلاحظ أن الشاعر يصف مغامرته مع الذئب وكيفية مواجهته له بمفرده، كما نجده يفتخر بتحمله أثقال الحقوق ونوائب الأقوام، وقد استعار حمل القربة لتحمل الحقوق، كما يفتخر بتجسّمه مخاطر الطريق ومقابلته الذئب ومقارنته بنفسه بالتفرد، ويفتخر كذلك باحتماله وخدمته كل الرفقاء، كما يتنقل الشاعر إلى قسم آخر يصف فيه الفرس، فيذكر جميع صفاته من سرعته، وحمرته، نشاطه، وحضوره، وذكاء قلبه، وقوة صلبه وذلك في الأبيات التالية:

وقد اغتدي والطير في وكناتهـــا	**بمنجـــرد قيـــد الأوابـــد هيكـــل**
ضليع إذا ما استدبرته سد فرجه	**بضاف فويق الأرض ليس بأعزل**

استعمل الشاعر الضمير المفرد في هذه الأبيات لأن الشاعر يصف ويمدح الفرس الذي يركبه في كل مرّة يخرج إلى الصيد: فهو بذلك يفتخر بالفروسية، كما يمثل الفرس عنده أمرا مهما في حياته، لأنه جزء من الطبيعة والبيئة التي ينتمي اليها.

ويقول أيضا في وصف البقر الوحشي:

فبات عليه سرجه ولجامــه   وبات بعيني قائما غير مرســل

فالبقر بات مسرجا قائما بين يديه غير مرسل إلى المرعى، فهو بذلك يسند كلامه إليه ويمدح نفسه من خلال البقر الذي مسكه بين يديه ولم يرسل إلى مرعاه، وهذا راجع إلى شخصيته وحياته التي عاشها في الترف واللهو وكثرة تنقلاته بين الصحاري.

ويقول أيضا:

أصاح ترى برقا أريك وميضــه   كلمع اليدين في حبي مكلــل

قعدت له وصحبي بين ضـــارج   وبين العذيب بعدما متأملـــي

استعمل الشاعر ضمير المفرد المتكلم في وصف الطبيعة، وبالتحديد وصف البرق، وهنا تظهر جليا الواقعية التامة، من خلال وصف أحداث أو أشياء من الواقع الخارجي والتي تعبر أيضا عن شخصيته ونفسيته وبالتالي قدرته وجدارته في الإبداع.

وبالتالي فلا يعد وأن يكون الضمير شكلا فارغا، «استخدامه مقترن بعلاقة المتكلم المرجعية بالسياق الذي يجري فيه الكلام، أي استحالة فهم معنى الضمير إلاّ حال استخدامه المرجعي، وبذلك يكون الضمير شكلا فارغا غير مقترن بالمفهوم، ولا بالموضوع، وذلك خارج الخطاب الحقيقي Effectif. إذن مرجع الوحدة المبهمة "أنا" لا يشير إلاّ إلى المتكلم نفسه، أمّا معناها فثابت لا يتغير».[1]

- **ضمير المتكلم الجمع:**

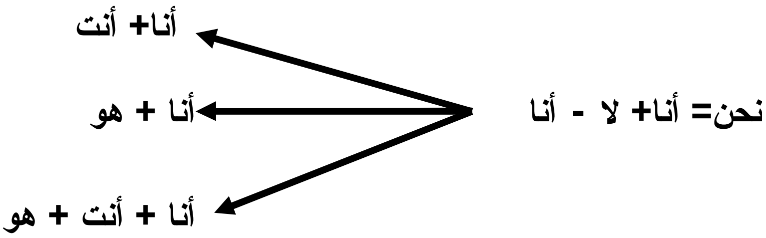
يعتبر الضمير "نحن" نوع من أنواع الإشاريات الشخصية الدالة على المتكلم الحاضر لأن صاحبه لا بد أن يكون حاضرا وقت النطق به، وكما سبق وأن أشرنا أن ضمير المتكلم الجمع "نحن" يحمل قيمة تداولية تتمثل أساسا في اعتماده على مبدأ المشاركة بين طرفي العملية التواصلية، لأنه يعبر باسم الجماعة، فهو بذلك يحمل مشاركة بين المتكلم والمخاطب أثناء الخطاب، واستعماله يستدعي التعبير عن التضامن مع المخاطب «فدلالة نحن في : نحن نسارع

1- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص 157.

الخيرات، فإنها لفظة واحدة في تكوينها، وصيغة مستقلة بنفسها في أداء الغرض منها، وهو: التكلم مع الدلالة على الجمع، أو على تعظيم المفرد، ولم يتصل آخرها اتصالا مباشرا بما يساعدها على ذلك الغرض».[1]

وبذلك يعد استعمال ضمير المتكلم الجمع "نحن" دليل على حضور الطرف الآخر حتى وإن كان غائبا عن عينه والقيمة التداولية التي يحملها الضمير "نحن" تبرز فيه سواء استعمل منفصلا أو متصلا وهذه القيمة تتمثل في التضامن مع المخاطب بالإضافة إلى اشتراكه في عملية الخطاب.

فالضمير "نحن" يعبر عن "أنا" و "لا أنا" الذي نحدّده في الشكل التالي:



والشاعر في هذه المعلقة نجده يستعمل ضمير المتكلم الجمع متصلا فلا نجد الضمير "نحن" منفصلا، كما نجده أقل توظيفا مقارنة مع الضمير المفرد المتكلم.

يقول الشاعر:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

نجد امرؤ القيس استعمل ضمير المتكلم للجماعة في قوله "نبك" فهو بذلك يدعو مرافقيه للتضامن معه ومشاركته على البكاء، فهو ينطلق من مبدأ المشاركة في دعوته للآخر أو مشاركته للطرف الآخر في العمل نفسه، فيقول تعالوا لنقف معا ونتعاون على البكاء عند تذكري الحبيب الذي فارقته والمنزل الذي خرجت منه وأصبح أطلالا.

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص291.

ويقول في سياق آخر:

خرجت بها أمشي تجر وراءنـــا	**على أثرينا ذيل مـــرط مرحــل**
فلما أجزنا ساحة الحي وانتحـــى	**بنا بطن خبث ذي حقاف عقنقل[1]**

يتكلم الشاعر هنا بصيغة الجمع لأنه موجود مع حبيبته "عنيزة" وقد عزز ضمير المتكلم الجمع احساس الشاعر وهو يسرد مغامرته معها، فوجب عليه أن يستعمله ليقدم وصفا عمّا كانا يقومان به حين تحدث عن آثار أقدامهم، كذلك حين تجاوزا مجمع البيوت ليجدا راحتهما معا.

كما نجد الشاعر يستعمل ضمير الجمع المتكلم متصلا في محل فخر بمقابلته الذئب بمفرده ومقارنته به، واستعمل صيغة الجمع لأن الذئب حاضر يشاهده أمامه ويقارن نفسه به وكأنه نوع من التعاون والتضامن بينهما، واحساس الشاعر وموقفه من الحياة يظهر جليا في هذا السياق، إذ يقول:

فقلت له لما عوى: إن شأننا	**قليل الغنى إن كنت لمّـــا تمـــول**
كلانا إذا ما نال شيئا أفاتـــه	**ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل**

فحالة الشاعر النفسية جعلته يحاكي الذئب بصيغة الجمع وكأنه في حوار معه.

كما نجد صيغة الجمع أيضا في قول:

فعن لنا ســـرب كـــأن نعاجـــه	**عذارى دوار في ملاء مذيـــل**
فألحقنـــا بالهـــاديـــات ودونـــه	**جواحرها في صرّة لم تزيـــل**
ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه	**متى ماترق العين فيه تسفـــل**

بالرغم أن الشاعر في هذه المقاطع يصف فيها البقر الوحشي وقدرة فرسه على ادراكه إلاّ أننا نجده يستعمل صيغة الجمع لأن الشاعر كان في رحلة صيد مع مرافقية وأحبابه فكان هذا الضمير الأداة الجامعة بينه وبينهم لتدّل على تعاونهم وتضامنهم في هذه الرحلة ومشاهدتهم لهذا البقر الوحشي وبالتالي مساعدتهم على وصفه.

1- ينظر: امرؤ القيس، الديوان، ص38.

ب) ضمائر المخاطب:

لا يقف استعمال ضمير المخاطب "أنت" في السياق عند الاحالة على المرجع فقط، بل يتجاوز ذلك فيصبح مؤشرا على غرض تداولي، وهو أن المشاركين في العملية التواصلية يعتبرون أنفسهم ذوي علاقة حميمة من الناحية الاجتماعية «ويمكن تعريف العلاقة الحميمية بأنها التعابير عن القيم المشتركة، والقرابة، والجنس، والجنسية، والموقع الوظيفي، وتكرار التواصل».(1)

أما ضمير المخاطب الجمع "أنتم" المشتركة لا يعتبر الناس أنفسهم ذوي علاقة حميمة اجتماعيا، ففي حالة عدم التكافؤ، تعد "أنت" مؤشرا على القرب الإجتماعي، في حين تعد "أنتم" دليلا على الإحترام والبعد الإجتماعي.

وتعتبر "أنت" الأداة التي يستعملها المرسل في مخاطبة المرسل إليه، سواء دار بينهما حوار، أو أي نوع من أنواع الخطابات، فكل طرف من أطراف العملية التخاطبية يستعمل أنت عندما يكون مرسلا، ويحدث هذا بين الناس ذوي علاقة حميمة كالأصدقاء أو أفراد الأسرة الواحدة، والأشخاص المقربين.

ونلاحظ أن الشاعر استعمل ضمير المخاطب المفرد منفصلا فلم يخاطب جماعة وهذا راجع إلى أن الشاعر لم يكن يخاطب جماعة وحتى سياق وغرض القصيدة لم يسمح له بمخاطبة جماعة المخاطبين، وإنما ضمير المخاطب المفرد يقصد به مخاطبة حبيبته "عنيزة" بالنظر إلى أن جل أبيات القصيدة تدور حول غرض الغزل بابنه عمه التي كانت تربطه بها علاقة قرابة وعلاقة حميمية فلم يلزمه ذلك استعمال ضمير الجمع لمخاطبتها. كما نجد ضمير المفرد في مخاطبته اصدقائه ليسعداه على بكائه ولذلك في مقدّمة المعلقة، كما نجده يخاطب الذئب في المقاطع التي كان يفتخر بها عند مواجهته له.

وقد ورد ضمير المخاطب المفرد المتصل في معنى الدعوة إلى التعاون والتضامن وذلك في هذا المقطع.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص 288.

فالشاعر يخاطب خليليه ويدعوهما للبكاء معه على تلك الدّار التي طالما تبادلوا فيها أسباب اللّهو، وشربوا فيها كؤوس الغرام حتى الثمالة، وقد عدّ النقاد هذه المقدّمة من أروع ماقاله الشعراء في الجاهلية، وفي خطابه قيل أنه خاطب الواحد خطاب الإثنين لأن العرب من عاداتهم إجراء خطاب الإثنين على الواحد والجمع يقول الزوزني: «وإنما فعلت العرب ذلك لأن الرجل يكون أدنى اثنين: راعي إبله وراعي غنمه، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة، فجرى خطاب الإثنين على الواحد لمرون ألسنتهم عليه، ويجوز أن يكون المراد به: قف، فإلحاق الألف أمارة دالة على أن المراد تكرير اللّفظ».[1]

وقوله:

كدأبك من أم الحويرث قبلها ... وجارتها أم الرباب بمأسل
ألا رب يوم لك منهن صالح ... ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات إنك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معا ... عقرت بعيري يامرأ القيس فانزل
فقلت لها سيري و أرخي زمامه ... ولا تبعديني من جناك المعلّل
فمثلك حبلى قد طرقت و مرضع ... فألهيتها عن ذي تمائم محول
أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
أغرّك مني أن حبّك قاتلي ... وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وإن تك قد ساءتك مني خليقة ... فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي ... بسهميك في أعشار قلب مقتل
فقالت يمين اللّه مالك حيلة ... وما أرى عنك الغواية تنجلي
ألا رب خصم فيك ألوى رددته ... نصيح على تعذاله غير مؤتل

يسند الشاعر القيام بالأفعال لابنة عمه "عنيزة" من خلال اعطائه أهمية لها، من ناحية كونها حبيبته، ومن ناحية كونها مهمة عنده لدرجة أنه يترجّاه أن تقلل من دلالها عليه، وكان يتحدّاه أن تفارقه وتجمل لفراقه، وهذا يحمل قيمة تداولية في جعل المتكلم يقدّم المخاطب عليه أي يعطي قيمة للمخاطب دون أن يحط من قيمته هو إذ نلاحظ أن الشاعر يخاطب حبيبته ويسرد اللّحظات الجميلة أو محاسن الأيام التي قضاها معها ويأمرها أن لا تتركه. وأن تطول معه

1- الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص9.

المقام، ويعد الآمر في هذا السياق تقديما لحق المخاطب ولو ضمنيا، فهو بصدد سرده لحواره معها مضمنا دعوته لها الاهتمام به ويقول أيضا مخاطبا الليل:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كـــأن نجومـــه بأمراس كتان إلى صم جنـــدل

نلاحظ أن الشاعر كأنه في حوار وخطاب مع الليل الطويل الذي يزيد في معاناته، فهو يترجاه أن ينتهي، فهو يخاطبه ويطالبه بالانكشاف والانجلاء فيرى أن نهاره مثل ليله فهو يقاسي الهموم نهارا كما يعاني ليلا، ويرى أن نهاره أظلم من ليله ويشير ضمير المتكلم في هذا السياق إلى أن الشاعر لا يريد المحافظة على العلاقة التي تجمعه بهذا المخاطب "الليل"، لأنه يزيد في آلامه ومعاناته وهمومه. وفي استعمال آخر نجده يخاطب الذئب وهنا يساوي نفسه بهذا المخاطب ويفتخر بنفسه عند مخاطبته له وذلك في قوله:

فقلت له لمّا عوّى: إن شأننا قليل الغنى إن كنت لما تموّل

ففي حواره مع الذئب يتبين وكأن الشاعر يفتخر بذاته، في مقابل اعطاء قيمة للآخر وهذا الآخر الذي هو الذئب يظهر كثرة هموم الشاعرالتي لا تنتهي إذ وصل به الأمر أن يشبه حاله بالذئب فإذا طلبوا شيئا لم يصلوا إليه, وهذا تظهر شخصية امرأ القيس ونفسيته الصعبة من كثرة ما يقاسيه من أحزان في حياته من خلال هذه المقارنة.

ج) ضمائر الغياب:

يتميز الضمير الغائب أو الشخصية الثالثة أنه يبتعد عن الابهام، فهو يوصف بأنه "لا. شخص"، إذ لا يمكن للضمير أن يعبر عن "لا شخص" إلاّ بإرادة المتكلم، تقول أوريكيوني: «إن القول بأن الضمير "هو" تكمن وظيفته في التعبير عن لا شخص، غير صحيح، إنما ذلك في بعض الأساليب التي يرغب فيها المتكلم تحديد طبيعتها».[1]

Kerbrat- Orecchioni, L'énonciation de la subjectivité dans le language, p.49. -1

فضمير الغائب صاحبه غير معروف لأنه غير حاضر ولا مشاهد فلا بد له من شيء يفسّره ويوضح المراد منه ولتحديده يقتضي الأمر الاستعانة بمرجعيته، واعتبرت "أوريكيوني" كل من (أنا و أنت) ذات مرجعية أثناء استعمالها في الخطاب، ويرى بنفنيست عكس ذلك حيث ينسب الضمير الغائب المرجعية التي يمكن الاستغناء عنها في حال (أنا و أنت) وفي ذلك يقول: «....أن الفرق بين "أنا" و "أنت" و "هو" يمكن في أن "هو" يحتاج إلى مرجع يفسر المدلولات المصاحبة للنص. والتي قد تستغني عنها "أنا" و "أنت"».(1)

والملاحظ على استعمالات ضمير الغائب في المعلقة أنها جاءت:

1- استعمال ضمير الغائب عند وقوفه على الأطلال، ووصفها فهي تمثل دلالات معيقة له من الناحية النفسية.

2- كما استعمل ضمير الغائب في سرده لقصته مع "عنيزة" وهذا راجع إلى ارادة الشاعر في استعماله. كما نجد هذا الاستعمال مصرّح به من طرف الشاعر، ونجده كذلك ضمنيا يفهم من سياق الكلام، أي وجب ربطه بما سبقه من الكلام للوصول إلى مدلوله من خلال مقاطع المعلقة.

يقول الشاعر:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها — لما نسجتها من جنوب وشمـأل
ترى بعر الآرام فـي عرصاتهـا — وقيعانهـا، كأنـه حـب فلفـل
كأني غداة البين، يـوم تحملـوا — لدى سمرات الحي ناقفوا حنظل
وقوفا بها صحبي عليّ مطيـهم — يقولون لا تهلك أسى، وتجمـل

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن حالته عند وقوفه على المنازل المهجورة، المنازل التي تمثل عنده حياة اللهو والسمر ولقاء الأحبة، واستعمل ضمير الغائب نظرا لحالته النفسية المنهارة عند رؤيته لتلك الطلال، فأصبحت عنده غير معروفة ومبهمة، فاستعماله لكلمات رسمها، نسجتها، عرصاتها، قيعانها وكأن الشاعر يقصد من خلالها وكأنه لأوّل مرّة يقف عند هذا المكان ولو ضمنيا نظرا للحالة التي آلت اليها تلك الأماكن التي ترجعه إلى الزمن الماضي.

1- Beveniste, problèmes de linguistique générale, T1, p.234.

كما يشير الشاعر أيضا إلى وقوفه وقفه حزن وألم عند رحيل أحبابه، وكيف تفاعل معه أصحابه في ذلك اليوم وذلك في قوله: وقوفا بها، مطيّهم، يقولون مؤكدا ذلك مبدأ المشاركة في مأساة التحمل، وهو يواسونه ويحثونه على التحلي بالصبر.

وكما نجده يستعمل ضمير الغائب في قوله:

كدأبك من أم الحويرث قبلهـــا   وجارتهـــا أم الرباب بمأســـل
إذا قامتا تضوّع المسك منهـــا   نسيم الصبا جاءت بريّا القرنفل
ألا رب يوم لك منهن صالـــح   ولا سيما يوم بـــدارة جلجـــل
ويوم عقرت للعذارى مطيتي   فيا عجبا من كورها المتحمّـــل
فظل العذارى يرتمين بلحمها   وشحم كهداب الدّمقس المفتـــل[1]

ويظهر استعمال الشاعر لضمير الغائب في سياق حديثه عن عشيقاته ومغامراته معهن. ففي حديثه عن أم الحويرث يذكر الشاعر كلمة قبلها فالهاء تشير إلى أن الشاعر مغرم أو على علاقة بأخرى لكنه لم يصرّح بها لكنه ضمنها في سياق كلامه كما يذكر أم الرّباب وكيف كانت تفوح منهما رائحة المسك الطيبة، وتأثر الشاعر بتذكر أيامه مع محبوباته جعله يستعمل ضمير الغائب ليوضح غيابهن عنه. وبالتالي فهي علاقة غياب فلم يعد لهن أثر في حياته وهذا ما أثر عليه وجعله يعاني.

وفي قوله:

فمثلك حبلى قـــد طرقت و مرضـــع   فألهيتها عن ذي تمائـــم محـــول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت لـــه   بشق وتحتي شقهـــا لـــم يحـــوّل
وبيضة خـــدر لا يـــرام خباؤهـــا   تمتعت من لهو بها غيـــر معجـــل
تجاوزت أحراسا إليهـــا و معشـــرا   علي حراصا لو يســـرون مقتلـــي
فجئت و قد نضـــت لنـــوم ثيابهـــا   لدى الستـــر إلا لبسة المتفضـــل
هصرت بفودي رأسهـــا فتمايلـــت   علي هضيم الكشح ريا المخلخـــل
مهفهفـــة بيضـــاء غيـــر مفاضـــة   ترائبهـــا مصقولـــة كالسجنجـــل
وتضحي فتيت المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل
وتعطو برخصه غير شتـــن كأنـــه   أساريع ظبي أو مساويـــك اشجل

1- ينظر: Beveniste, problèmes de linguistique générale, T1, p.26.

تضيء الظـــلام بالعشـــاء كأنهـــا   منـــارة ممســـى راهـــب متبـــتـــل [1]

يشير ضمير الغائب في هذه الأبيات إلى "عنيزة" فوصفها الشاعر بجميع الصفات الحميدة التي زادته شغفا وحبّا لها فضمير الغائب يجمع بين حسرته لأنه لم يحظ بيوم يجمعه بعنيزة دون أن ينتبه لأحد وبين سرده لهذه المغامرة التي تعتبر من أجمل مغامرات حياته. كما نجده استعمل ضمير المتكلم وضمير الغائب في سياق واحد، وهذا يوضح أن الشاعر في حالة سرد لقصته في غياب "عنيزة" كما يوضح الشاعر الأفعال التي أقدم عليها من أجلها حيث تجاوز جميع العقبات والتهديدات التي كانت تأتيه من أهلها.

ومن خلال هذا تظهر لنا ذاتية الشاعر وكأنه نوع من الفخر والاعتزاز بنفسه وبقوته أيضا باعتباره ملكا والملوك لهم السلطة على فعل أي شيء، كما تظهر لنا أيضا شخصية الشاعر المحبة والحساسة وأنه يستطيع أن يفعل أي شيء من أجل من يحب وهذا راجع إلى حياته التي عاشها باعتباره ابن الملك وبالتالي له القدرة والسلطة على تجاوز أي أحد يعارضه.

وقوله:

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علي بأنواع الهموم ليبتلـــي
فقلت له لمـــا تمطـــى بصلبـــه   وأردف اعجازا وناء بكلكـــل
فيالك من ليـــل كـــأن نجومـــه   بأمراس كتان إلى صمّ جندل[2]

نلاحظ أنه يتكلم عن الليل باستعمال ضمير الغائب، فهذا له دلالة هامة، فهو يدّل على عدم الاكتراث بوجوده لأن الليل بالنسبة له يحمل معه كل أنواع الأحزان والهموم، فكلما طال الليل طالت همومه وآلامه وجميع الشدائد والسهر المتولد منها، وعدم الاكتراث بوجود الليل دليل على صبر الشاعر لهذه الشدائد وهذا ما لم يصرّح به الشاعر مباشرة وإنّما ضمنه في قوله، فهو بذلك يمدح نفسه بالصبر لكل أنواع الهموم.

كما نجده يستعمل ضمير الغائب في موضع آخر:

وقربة أقوام جعلت عصامهـــا   على كاهل منـــي ذلـــول مرحّـــل

1- ينظر: امرؤ القيس، الديوان، ص 30

2- ينظر: المصدر نفسه، ص48.

وواد كجوف العير قفر قطعته — به الذئب يعوي كالخليـــع المعيــل
فقلت له لما عوى إن شأننـــا — قليل الغنى إن كنـــت لمّـــا تمـــوّل
كلانا إذ ما نال شيئـــا أفاتـــه — و من يحترث حرثي وحرثك يهزل[(1)]

يستعمل الشاعر ضمير الغائب في سياق الفخر في تعودّه التحمّل للحقوق والنوائب، كما يعظم ذاته بخدمته الرفقاء في السفر، كما يفخر بقطعه للواد سيرا أين كان الذئب يعوي، فيصف الشاعر هذه الأشياء بضمير الغائب على أساس أنه بإمكانه أن يتغلب على جميع المصائب.

كما نجده يستعمل ضمير الغائب في سياق الوصف، فهو بذلك يستعظم موصوفه ويجعله مرتبة عالية بجميع الصفات التي نسبها إليه وذلك في قوله:

وقد أغتدي والطير في وكناتها — بمنجرد قيـــد الأوابـــد هيكـــل
كميت يزل اللبد عن حال متنه — كما زلت الصفـــواء بالمتنـــزل
على الذبل جياش كأن اهتزامه — إذا جاش فيه حميه غلي مرجل
يزل الغلام الخف عن صهواته — ويلوي بأثواب العنيف المثقـــل
درير كخذروف الوليد أمـــرّه — تتابع كفيـــه بخيـــط موصـــل

والملاحظ على استعمال ضمير الغائب في هذه الأبيات أنه وجب علينا الرجوع إلى سياقها للوصول إلى دلالة الضمير ومرجعه، فالسياق اللّغوي هو الذي يتكفل بمرجعيته، فالشاعر يشير إلى ذات غائبة في الخطاب الصريح، والمتمعن فيها يظهر الشاعر يفخر ويمدح ويصف فرسه بكل الصفات الجميلة على غرار الهيكل، مكر، مفر، مقبل، مدبر، جياش وغيرها. فهو يضع موصوفه في درجة من العظمة والاستلاء، وقصد الشاعر تغيبه بإرادة منه ليعطيه أهمية أكبر.

ويقول أيضا:

فعن لنا ســـرب كـــأن نعاجـــه — عذارى دوار في ملاء مذيّل
فأدبرن كالجزع المفص بينـــه — بجيد معم في العشيرة مخول
فألحقنـــا بالهاديـــات و دونـــه — حواحرها في صرّه لم تزيـــل
فعادى عداء بين ثور و نعجة — دراكا ولم ينضح بماء فيغسل

1- ينظر: امرؤ القيس، الديوان، ص 51.

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه   متى ما ترّق العين فيه تسفل
فبات عليـــه سرجـــه ولجامـــه   وبات بعيني قائما غير مرسل

يدور حديثه في هذه الأبيات على وصف البقر الوحشي الذي عرض لهم وظهر وهو يشير اليه بضمير الغائب على أساس أنه لا يهمه بالرغم من الصفات التي نسبها إليه على غرار عداوى دوار، الخرز وغيرها إلاّ أنه يفتخر بقدرة فرسه على ادراكه. ومن هنا وجب الاشارة إلى التناقض الغريب لما ورده امرئ القيس في المعلقة وحياته التي يشوبها الترف وحب النساء فنراه في هذه المقاطع وكذا في المقاطع السابقة أنه يعاشر الحيوانات، ويستمتع بوصفها ويستأنس بها ونجده أحيانا يضعها في درجة أعلى من الأهمية، فضمير الغائب في هذه الأبيات تدّل على أن الشاعر في حالة نفسية متقلبة فهو يصف كل ما تقع عليه عيناه وهذا من طبيعة الشاعر الجاهلي.

كما نجده في موضع يصف فيه الطبيعة في قوله:

أصاح ترى برقا أريك و ميضه   كلمع اليدين فـــي حبـــي مكلّـــل
يضيء سناه أو مصابيح راهب   أمـــال السليط بالذبـــال المفتـــل
قعدت له و صحبتي بين ضارج   وبين العذيب بعـــد مـــا متأملـــي
على قطن بالشيم أيمن صوبـــه   وأيســـره على الستـــار فيذبـــل
فأضحى يسح الماء حول كتفيه   يكب على الأذقان دوح الكنهبـــل
ومر على الفنان مـــن نفيانـــه   فأنزل منه العصم من كل منـــزل
كأن ثبيرا في عرانيـــن و بلـــه   كبير أنـــاس فـــي بجـــاد مزمّـــل
وألقـــى بصحـــراء الغبـــيـــط   بعاعه اليماني ذي العتاب المحمّل
كأن السباع فيه غرقى عشيـــة   بأرجائه القصوى أنابيش عنصـــل(1)

ورد ضمير الغائب في معنى الوصف الذي كان متضمنا في سياقات التأمل والتمعن في مظاهر الطبيعة وروعنها فوصف المطر وقبله البرق ولمعانه، والسيول الجازفة والأودية والسهول، فشخصيته تتأثر بهذه المظاهر، بحيث يرسمها كخارطة لروحة المليئة حزنا وأسى، وتكاد هذه المظاهر الطبيعة تكون جزءا من ذاته.

1- ينظر: امرؤ القيس، الديوان، ص 61.

فالطبيعة عند الشاعر، تظهر من خلال ركوبه على فرسه، أو من خلال ناقته وسائر الحيوانات التي وصفها من خلال المعلقة، كما تظهر أيضا من خلال البرق والمطر والسيول وغيرها التي بمضي أكثر أوقاته يتأملها وقد استطاع أن يجعل من حركة هذه المظاهر حركة روحه، وهذا ما ضمنه الشاعر في هذه الأبيات، وهنا تظهر القيمة التداولية من خلال ربط خطاب الشاعر بالسياق الذي ورد فيه.

2- أسماء الإشارة:

سبق وأن أشرنا أن اسم الاشارة يدّل على استحضار الذات أثناء الخطاب، فهي تحيل على حاضر وقت العملية التواصلية، وتعتبرها "أوريكيوني" «من الأسماء التي لا يمكن تحديد مرجعيتها إلاّ من خلال السياق اللّغوي فهي مرتبطة بالمقام التواصلي»[1] وعند استقرائنا لاستعمالات اسم الإشارة في المعلقة فنجدها تكاد تخلو من هذه الأسماء باستثناء بيتين اثنين واستعمله الشاعر في سياق حديثه عن الوصف المراد منه الاشارة إلى طول الليل ودعوته غلى الانجلاء وظهور الصباح لأنه يزيده ألما وحزنا. كما استعمله عند مخاطبته لفاطمة أن تقلل من دلالها عليه. فنجده يقول:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي[2]

استعمل الشاعر اسم الاشارة المفرد "هذا" عند مخاطبته لفاطمة لتقلل من دلالها عليه، ويأمرها أن تدع هذا الدلال لأنها تؤذيه فهي تثق بحبه لها وعليه تتفنن في ايذائه ودلالها عليه، كما يشير الشاعر من خلال هذا الاستعمال إلى تجربته القاسية أحيانا مع عشيقته، حين تتدّلل عليه، وهذا ما يزيده معاناة وألم.

ويقول أيضا:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الاصباح منك بأمثل[3]

Karbrat- Orecchioni, L’énonciation de la subjectivité dans le langage. P. 50 -1

2- ينظر: امرؤ القيس، الديوان، ص 32

3- المصدر نفسه، ص 49

نلاحظ في هذا البيت أن الشاعر يخاطب الليل ويأمره بالانكشاف وكان ذلك باستعمال الأداة "أيها" التي جمع بواسطتها الشاعر بين الليل الطويل وهمومه التي يعانيها صباحا وليلا، وهنا يظهر خطابه لغير العاقل الذي يدّل على فرط الوله وشدّة التحيّر، ويستعمل الشاعر الجاهلي هذا الضرب في الرثاء والغزل، والحزن والألم والشوق وغيرها.

3- الإشاريات الزمنية:

تتمثل الاشاريات الزمانية في استعمال ظروف الزمان بصفة عامة. وإذا لم يعرض الزمن التبس الأمر على المتلقين، وقد تدّل هذه العناصر على الزمان الكوني والنحوي، واستعمالها خاضع لمعرفة وقت التكلم كما يخضع كذلك لما يقصده الشاعر، ونجد الاشاريات الزمنية في المعلقة تدّل على زمن الماضي الذي يعبر عن التجربة الوجدانية للشاعر، فالزمن الماضي ظاهرة ترتبط بالحياة الاجتماعية في كل أبعادها ومستوياتها، فنجد الشاعر لم ينفصل عن ماضيه، وما يحمله هذا الماضي من ذكريات، فالزمان عنده مرتبط ارتباطا وثيقا بحياته الاجتماعية والنفسية، وتكيفه مع الطبيعة والبيئة التي يعيش فيها، فتجربته الوجدانية تحمل هذه المظاهر المتمثلة في الأيام وبالخصوص تعاقب الليل والنهار. كما يجب أن تشير إلى أن القارئ لا يمكنه إدراك دلالة الزمن في المعلقة إلاّ بمعرفة مرجعه وسياقه وهذا ما يعطيه قيمة تداولية. ففي قوله في مقدمة المعلقة.

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل بسقط اللّوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمـــأل
ترى بعر الآرام في عرصاتهـــا وقيعانهـــا كأنـــه حـــب فلفـــل

من خلال هذه الأبيات يتضح أن الشاعر يحن إلى الزمن الماضي من خلال استعمال لفظة "ذكرى" فهذه اللفظة تشير إلى رغبة الشاعر الرجوع إلى الزمن الماضي، زمن الذكريات الجميلة والحياة السعيدة التي كان يعيشها في كنف الأحباب، وفي الوقت نفسه يتحسر على الزمن الحاضر الوحش، من حلال تذكره للديار الخالية، التي أصبحت مرتعا للضباء.

ويقول أيضا :

كأني غداة البين يوم تحمّلــوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل
وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمــل

وإن شفائي عبــرة مهراقــة فهل عند رسم دارس من معوّل

يؤدّي الزمن دورا مهمّا في مقدمة هذه المعلقة، فهو يمضي في تجربته من خلال تذكره للأماكن التي تذكره بالمحبوبة وكذلك من خلال ذكرياته معها التي تعيده إلى الزمن الماضي الذي يحمل في جعبته صورة الحبيب والمنزل ومن هنا نرى أن الشاعر مرتبط في تجربته بالماضي والذاكرة ومتشبث به، فأي محاولة لإلغاء هذا الماضي تؤدي إلى إلغاء هذه الذاكرة التي تنبع من تجربته الذاتية.

ويقول أيضا:

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

نجده في هذا البيت يذهب بذاكرته إلى أسماء محبوباته فذكرى أم الحويرث وأم الرباب، كما استعمل آداة تدّل على زمن وهي "قبلها" ومرجعها يعود إلى المرأة التي شعف بها الشاعر بحبها الآن، فهو بذلك يحن إلى الماضي الذي يذكره بكل مغامراته الجميلة مع عشيقاته ويقول أيضا متحدثا على أوقاته وأيامه مع "عنيزة":

ألا رب يوم لك منهــن صالــح ولا سيما يوم بدارة جلجــل
ويوم عقرت للعذارى مطيتـــي فيا عجبا من كورها المتحمّل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلي
ويوما على ظهر الكثيب تعذرت عليّ و آلت خلفه لــم تحلــل
تضيء الظلام بالعشـــاء كأنهـــا منارة ممسى راهــب متبتــل[(1)]

يعبر الشاعر في هذه الأبيات عن الأيام التي عاشها مع ابنة عمه "عنيزة" وقد استعمل اللفظة "يوم" التي تكرّرت في أكثر من بيت وكأنه يعدّ تلك الفترات الجميلة أثناء لقائه مع محبوبته، فهو يعبر عن فترة حساسة في حياته وعليها تظم هذه المعلقة وعليها كذلك قامت تجربته الوجدانية.

1- ينظر :امرؤ القيس، الديوان ، ص46.

فهو تعبير ذاتي عن حالته النفسية ومعاناته من تذكر تلك الأيام، وفي نفس الوقت تحمل دفعة ايجابية بالنسبة للشاعر للإحساس بالراحة والهدوء والسعادة ونجد قوله كذلك:

وليل كموج البحر أرخى سدوله	**علي بأنواع الهمــوم ليبتلـــي**
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلـــي	**بصبح و ما الاصباح منك بأمثل**
فيالك من ليــل كــأن نجومـــه	**بأمراس كتّان إلى صمّ جنـــدل**

يظهر ليل الشاعر مظلم وطويل حتى شبه ظلامه في ظلامه وهو له وصعوبته بأمواج الليل، واحساس الشاعر بوطأة الهموم وصعوبات الحياة جعله يصوّر الليل بهذه الصورة التي توحي بالشعور المتوتر، فزمان الليل هو ذلك الزمن الذي تزيد فيه وتيرة الأفكار وتتسع. فعبء الليل لا ينجلي لأن الشاعر يمضيه متأملا وساهرا ينتظر ظهور ضوء الصباح للخروج إلى الصيد. ووقفة الشاعر متأملا الليل ترمي إلى تفريغ ما تخزنه ذاته من هموم ومحن، يهدف من خلالها إلى الركون إلى نفسه.

وتجدر الإشارة هنا أن شعور الشاعر تفل حدّة الليل ليس مردّه الظاهرة الزمنية الحقيقية نفسها، بل هو احساس كامن في أعماقه وكيانه، فالشاعر لا يهدف إلى انقشاع الظلمة لأن الصباح ليس أفضل من الليل، فالحزن والألم يسكنانه من الداخل، ولا تقتصر على الظاهرة الزمنية الطبيعية.

كما نجد عنصر الزمن حاضرا أيضا في سياق حديثه عن وصف المطر فهو يمثل لحظة زمنية وصفها بالكارثة التي تفضي إلى الهلاك، فالتوظيف الشعري للمطر ينشق من تجربة الشاعر نفسها في لحظتها الشعرية الراهنة إذ يقول:

أصاح ترى برقا أريك وميضـــه	**كلمع اليدين في حبـــي مكلـــل**
فأضحى يسح الماء حول كتفيه	**يكب على الأذقان دوخ الكنهبل**
وتيماء لم يترك لها جذع نخلة	**ولا أطمـــا إلا مشيـــدا بجنـــدل**
كأن السباع فيه غرقى عشيـــة	**بأرجائه القصوى أنابيش عنصل**

نرى أن الشاعر في لحظة تفاولية للزمن من خلال وصفه للمطر، كأنه يرنو إلى أفق يجمع بين الرغبة من التخلص من مظاهر القحط والجذب ولا حساسه بالحاجة إلى المطر والخصب، وهذا راجع إلى شخصية الشاعر ونفسيته.

ويقول أيضا في السياق نفسه متتبعا مراحل سقوط المطر وذلك مرورا بمختلف المظاهر الطبيعية:

يضيء سناه أو مصابيح راهب	**أمـــال السليــط بالذبـــال المفتـــل**
قعدت له وصحبتي بين ضارج	**وبين العذيـــب بعدمـــا متأملـــي**
على قطن بالشيم أيمن صوبــه	**وأيسره علـــى الستـــار فيذبـــل**
كأن ثبيرا في عرانيـــن وبلـــه	**كبيـــر أناس فـــي بجـــاد مزمـّــل**
كأن ذرى رأس المجيمر غدوة	**مـــن السيل والأغثاء فلكه مـــغزل**
وألقى بصحراء الغبيط غـــدوة	**نزول اليماني ذي العياب المحمّـــل**

وصف الشاعر للمطر ومختلف مظاهر الطبيعة من برق وسحاب وسيول نابع من ذاته وشخصيته التي تجعله يصف كل ما تراه عيناه ويتأثر بجميع المظاهر التي تحدث أمامه. فتشكل هذه المظاهر جميعا نوع من التفاؤل بالخصب والنماء، حيث نجده يجسد الطبيعة في توب من السعادة والابتهاج، فالمطر عن الشاعر يعد عنصرا ضروريا للاستقرار والبقاء واستمرار الحياة، وبذلك تشكل زمنا للمطر، تكسب الشاعر روحا تفاؤلية وآداة لتحقيق توازنه النفسي. فالزمن الماضي هو الزمن الذي عاش فيه كل لحضاته الجميلة لذا نجده يطغى على أبيات القصيدة خصوصا عند حديثه عن أيامه مع عشيقته الذي يعتبر الحدث الذي طغى على حياته وجعله زمنا يكشف عن أسرار ذاته وشخصيته بالاعتماد على ظاهرة السرد.

إن هروب الشاعر للزمن الماضي في سياق محاولته تجاوز آثار المحنة التي ألمت به قصد اعادة الحيوية إلى علاقته بذاته من جهة، وهي علاقة داخلية مرهفة وبذات الآخرين من حوله وهي علاقة خارجية تنبثق عن العلاقة بالذات للتناغم مع الجماعة من حوله[1]. فامرؤ القيس يعطي أهمية كبيرة للمخاطب، وهذا ما يحمل غرضا تداوليا من خلال تفاعله مع هذا المخاطب، وجعله في مرتبة أعلى، لأنه أثر في حياته ويعتبره جزء منه، وعدم انفصال الشاعر عن ماضيه راجع إلى ما يحمله هذا الماضي من ذكريات حين كان يواجه واقعه وبيئته، وبالتالي فهو مرتبط ارتباطا وثيقا بحياة الشاعر في مجتمعه وبتجربته الوجدانية.

1- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص165.

فالزمن الماضي عند الشاعر يمثل الدار العامرة، الفرح الأمل والابتهاج بينما الزمن الحاضر يمثل الدار الخالية المقفرة، والحياة المليئة بالهم والحزن والتشاؤم، فهذا التضاد الذي نجده في المعلقة يبين أو يفضح عن أحاسيس ومشاعر الشاعر فالاحساس بالزمن يعد بعدا ذاتيا فرديا لدى الشاعر.

وبالمقابل فإن إحساس الشاعر بالزمان يقابله إحساسه بالمكان، بالرغم من أن المفردات الدّالة على الزمن كما سبق وأن أشرنا في المعلقة أقل من المفردات الدّالة على المكان، غير أن هذا لا يقلل من أهمية الزمن في المعلقة، لأن الزمن يكتفها بمقاطعها المتعدّدة، كما أن الاكثار من المفردات الدّالة على المكان له ما يبرزه عند شاعر بدوي تحيط به الصحراء من كل جانب فضلا عن أن الاحساس بالمكان أقرب وأكثر لصوقا بالانسان إذا قسمنا ذلك بإحساس الإنسان بالزمان الذي يليه[1] وهذا ما سنراه لاحقا عند تناولنا للاشاريات المكانية.

4- الإشاريات المكانية:

تعتبر الإشاريات المكانية عناصر تشير إلى أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان ولحظة التكلم، أو على مكان آخر معروف للسامع أو المخاطب، ولا يستطيع المتكلم أن يتخلى عن المكان عند تلفظه بالخطاب، وهذا ما يعطي الإشاريات المكانية مشروعية اسهامها في الخطاب.

إن علاقة المكان المرجعية هو الحديث عن السياق الذي يجري فيه الكلام، فالدلالة المرجعية لا تتجلى إلاّ من خلال النقطة المرجعية في الفضاء الذي ينجز فيه الكلام، فإذا كان اسهام الإشاريات الزمنية في الخطاب يبدو من خلال دلالتها على لحظة التلفظ، فإننا نجد المؤشرات المكانية «تحدّد مواقع الانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام انطلاقا من الحقيقة القائلة إن هناك طريقتان رئيسيتان للإشارة إلى الأشياء هما: إما بالتسمية أو الوصف من جهة أولى، وإما بتحديد أماكنها من جهة أخرى، كما

1- ينظر: كريم الوائلي، الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية، دار العالمية، القاهرة، ص 93، 98.

أن تحديد المرجع المكاني مرتكز على تداولية الخطاب، وهو ما يؤكد أهمية استعماله لمعرفة مواقع الأشياء».[1]

تتمثل الأماكن المذكورة في المعلقة في أسماء الأماكن التي عاش فيها الشاعر طوال حياته، والأماكن التي صادفها في مختلف رحلاته وقد تركت أثارا كبيرا في حياته على غرار، المقراة، الدخول وحومل، منزل، حي، الواد، الجبل، الصحراء وغيرها. نجد الكثير من الشعراء يبدون اهتماما بالمكان حيث يمثل المكان عند الشاعر الجاهلي خاصة احساسا متميزا ناجما عن الشوق والحنين إلى تلك الأماكن التي كانت مسرحا لأحداث حياته، فيتحوّل بذلك المكان من دلالتها الجغرافية إلى دلالة شخصية، لا يمكن تفسيرها وفهمها إلاّ بالعودة إلى السياق الذي وردت فيه، المتمثل في ظروف حياة الشاعر التي فرضت أهميتها في استعمال الدلالة المرجعية للمكان لتوضيح مقصوده.

والمتأمل في الشعر الجاهلي يجده يعكس حياة الفرد الجاهلي المتمسك ببيئته الصغيرة المحدودة في القبيلة «فهو شعر مستمد من الطبيعة الماثلة أمامه يتفاعل مع مظاهرها كما يتفاعل مع أي شيء خارجي، وقلما تتعمق رؤيته لهذه المظاهر، فالشاعر الجاهلي في عمومه يغلب عليه طابع البساطة، والتلقائية وكذا الاستجابة الفورية للمثير، إذ نادرا ما تقع أيدينا على أبيات لشاعر جاهلي تتم عن عمق رؤيته ووعيه بمشكلات عصره».[2]

إن شعور الشاعر بالإحباط تجاه الدهر وصروفه «جعلته يلجأ إلى استذكار أيام الصبا واللهو ففيها طول الأمل، وابتعاد سبح الموت، فكانت وقفة الأطلال تعبيرا رمزيا عن تجربة الفقد التي يعاني منها الشاعر، ويعانيها في الوقت نفسه لأنها ارتبطت بعالم الفتوة، واللذة والحبور، فجابهت الذات أحوال هذا العالم بالإبداع الشعري لأنها تمسك زمام الأمر في صراعاته، وبه تحدد معالم البناء الحياتي، والذاكراتي للوجود على المستوى الزماني و المكاني».[3]

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص84.

2- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص183.

3- محمد سعيد حسين وحسن اسماعيل، ازمة الذت اشعرية معلقات امرئ القيس وطرفة بن العبد وعنترة نموذجا، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد 19، العدد 7، 2013. ص 352.

يقول الشاعر:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

ذكر الشاعر في هذا البيت عنصرين أشار بهما إلى المكان وهما منزل، الدخول وحومل، تمثل هذه العناصر الأماكن التي ينتمي إليها الشاعر والتي عاش فيها حياته الجميلة المليئة باللّهو والفرح ويوم كانت هذه الأماكن عامرة بأهلها والأحبة أنيسة بوجودهم تتخلّلها أسباب الحياة، والتي تحوّلت في الزمن الحاضر إلى أطلال خالية من أصحابها والأحباب، ومن كل أنيس، فقد ذكرها الشاعر عندما يتذكر الأحبة ويدعو خليليه ليساعداه على البكاء عند وقوفه وتذكره هذه الأماكن والمنازل التي خرج منها، والحبيب الذي فارقه، هذا ما يدفعه إلى الحزن والتشاؤم والألم الداخلي. ويقول أيضا:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل
ترى بعد الآرام في عرصاتهـــا وقيعانها كأنـــه حـــب فلفـــل

إن ذكر الشاعر للمكان في هذا المقام يكشف عن شمولية الاندثار، ممّا يعني انعدام الحياة، ونفي الشاعر إلى المجهول، ممّا يؤكد فلسفة الغياب.

ومن خلال هذه الأبيات يتبين أن الشاعر وكأنه في حوار داخلي مع ذاته أو ما يعرف بالمونولوج فهو يتفاعل مع ذاته وهذا ما يعطيه دلالة تداولية متمثلة في التفاعل من خلال حواره مع ذاته، وقد أشار "بنفنيست" إلى أن الحوار الداخلي هو نوع من أنواع التفاعل، فالشاعر يحاور نفسه ويقول «أنظر بعينيك ترى هذه الديار التي كانت مأهولة بأهلها مأنوسة بهم خصبة الأرض، كيف غادرها أهلها وأقفرت من بعدهم أرضها، وسكنت رملها الضياء، ونثرت في ساحاتها بعدها حتى نراه كأنه حب فلفل في مستوى رحباتها».(1)

ويذكر الديار كذلك عندما يتذكر وقوفه عند الحي بعد رحيل أحبته وقفة جافي الحنظلة من كثرة الحيرة، وكيف كان أصحابه يأمرونه بالصبر، وعدم البكاء:

كأني غداة البين يوم تحمّلـــوا لدى سمرات الحي ناقف حنظـــل
وقوفا بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أســـى وتجمـــل

1- الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص10.

فسمرات الحي هو المكان الذي وقف عليه الشاعر المتمثلة في القبيلة التي يعتز ويفتخر بها أي المكان الذي ينتمي إليه، فيصف حالته عند وقوفه عليها بجاني الحنظلة من كثرة حزنه فهو يتحسر لما آل إليه وضع القبيلة التي تذكره بكل ما هو جميل في حياته، ومازاده ألما وحزنا عندما وقف أصحابه عليه بواسونه وهو ينظر إلى رواحلهم، ويأمرونه ألا يحزن وأن يتجمل بالصبر، وهذا ما جعله يصل إلى مرحلة ذروة الضيق النفسي لأنه يعلم أنه سيعيش باقي حياته وحيدا بعيدا عن أحبته وأصدقائه. فهذا التبدل الذي أصاب هذه الديار انعكس سلبا على ذات الشاعر ممّا جعله يستسلم للبكاء وللأحزان والحسرة.

وإذا كان الشاعر يستذكر ذكرياته بوقوفه على الأطلال واشارته إلى مختلف الأماكن التي وصل إليها، وعبّر عن حالته ومشاعره وتحسرّه من الوضعية التي آلت إليها هذه الديار بالبكاء، لكن الشاعر وجد في هذه الدموع الحارة ما يخفف من وطأة نار الحزن والألم والوحدة والفراق، لأن هذه الأماكن التي يذكرها في معلقته شاهدة على أيام اللهو والصبا والذكريات الجميلة مع الحبيبة إذ يقول:

ألا رب يوم لك منهن صالح ولاسيما يوم بدارة جلجل[1]

ذكر الشاعر "لدارة جلجل" ناجم عن المكان الذي التقي فيه حبيبته فيعتبر ذلك المكان وذلك اليوم من أحسن وأفضل الأماكن والأيام التي ظفر فيها يعيش صالح ناعم، فبمجرّد ذكره لهذا اليوم يجعله يعيش لحظة فرح مع ذاته، لأن هذا المكان شاهد على تلك اللّحظة.

وقوله: «ولا سيّما يوم بدارة جلجل معناه التعجب من فضل هذا اليوم، أي هو يوم بفضل الأيام، والتقرير: ولا مثل الذي هو يوم».[2]

إن الجانب التداولي في ذكر الشاعر لهذه الأماكن وهذه الديار يظهر في أنها أماكن لها آثار في حياة الشاعر، يعبر من خلالها عن تجربته الذاتية فالمستمع أو القارئ إذا لم يعرف السياق الذي قيلت فيه المعلقة لن يدرك مدى تأثر الشاعر بذكره لهذه الأماكن التي أصبحت خالية

1- ينظر: : امرؤ القيس، الديوان ، ص 26.

2- أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، ط5، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة، ص33.

من كل أنيس وحبيب، وإنّما أنيسه في الزمن الحاضر هو العودة إلى الماضي وتذكره لكل ذكرياته الجميلة وكيف قضى أسعد أيامه منذ زمن، هنا مع محبوبته، وحاليا فرقت بينهما الحياة بثقلها المستمر.

ويقول أيضا:

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحوّل[1]

نجد في هذا البيت استعمال الشاعر لعنصرين دالين على الإشاريات المكانية وهي "تحتي" و "خلفها"، فهو يبيّن مدى تعلق هذه المحبوبة به، فلم يشغلها ابنها عن ارضائه واهتمامها به، وميلها اليه وكلفها به، فالشاعر ضمّن قوله نوع من الفخر بذاته من خلال اهتمام محبوباته به، حتى ولو كانوا مرضعات، فلا شيء يشغلهن عن الإهتمام به وذلك من كثرة شغفهن به وهنا تظهر جليا حياة الشاعر التي عاشها في اللّهو والتغزل بالنساء وبمحبوباته خاصة.

ثمّ نجده يصف محبوبته، ويعطي للمكان الذي تعيش فيه أهمية كبيرة لأنه يتمتع بلقائها في ذلك المكان، كذلك نجده يتسبهما بالبيض لأنها لا تبرح ذلك المكان وذلك في قوله:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجّل[2]

لقد شبهة هذه المرأة التي لزمت خدرها أو بيتها بيضة خدر، وذلك في جمالها، وصونها وسترها، فهي لزمت ذلك المكان الذي ينتفع به الشاعر باللّهو بها، وزيارتها فيه، فهو لم يعجل عنها، ولم يشغل عنها بغيرها.

ويقول أيضا:

إذا ما الثرّيا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفضّل[3]

يعتز الشاعر بأنه تجاوز كل العقبات التي وقفت في طريقه ومتعته من زيارة حبيبته، فقد تجاوز اليها في وقت ابداء الثريا عرضها في السماء، أي عند رؤية نواحي كواكب الثريا في

1- ينظر : امرؤ القيس، الديوان، ص 31.

2- ينظر : المصدر نفسه، ص 35.

3- ينظر : نفسه ، ص 36.

الأفق الشرقي، في وقت غفلة من رقبائها، فقد شبه اجتماع الكواكب في الثريا ودنو بعضها من بعض بالوشاح المنظم بالودع المفصل بينه. وهذا ما يبين أن إمرأ القيس يصف أو يقف على أي مكان أو نقطة يصادفها في حياته وفي مغامراته. كما نجده يصف حبيبته وهي تجر ذيلها وتعفو الأثر خوفا منها أن يستدّل عليهما فيقول:

خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحّل[1]

استعمل الشاعر ظرف المكان "وراء" ليدّل به على أن الحبيبة عندما أخرجها من خدرها، وهي تمشي، كانت تجر وراءها مرطها على أثرهم لتمسحه أو لتعفوا به آثار أقدامهم، وذلك لمسح جميع الآثار التي تجعلهم يبعدون عن جميع الشبهات، حتى يسلموا ممن يتبع الآثار ليصل اليهم، خاصة حراس حبيبته، الذي يحرصون على قتله متى سمحت لهم الفرصة لذلك.

تجدر الاشارة أن استعمال الشاعر للمكان يفضح للمتلقي عن حقيقة الانسجام والألفة بينهما في الأيام الخوالي، فيتحوّل بذلك المكان إلى كاتم أسراره لأنه شاهد على جميع مغامراته، وهذا ما يظهر جليا في قوله:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل[2]

تشير استعمال ساحة الحي إلى القبيلة أي المكان الذي التقيا فيه، وعليه يجب عليهما أن يبتعدا من مجمع البيوت في القبيلة حتى لا يلفتا انتباه أحد، وبالتالي يطلقوا العنان للهو والمرح. فمعنى البيت يقول: «فلما أجزنا ساحة الحلة وخرجنا من بين البيوت وصرنا على أرض مطمئنة بين حقاف، يريد مكانا مطمئنا أحاطت به حقاف أوو قفاف متعدّدة، والعقنقل من صفة الخبث لذلك لم يؤنثه، ومنهم من جعله من صفة الخفاف وأحلّه محل الأسماء وعطله من علاقة التأنيث لذلك».[3]

ويقول كذلك في سياق وصف العشيقة عند اعراضها عنه بالوحش الذي يخرج من موضعه الذي لا يفارقه في قوله:

1- ينظر: امرؤ القيس، الديوان ، ص 38.

2- ينظر : المصدر نفسه ، ص 39.

3- الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص22.

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي   بناظره من وحش وجرة مطفل[1]

إنه بذكره للمكان أو لموضع الطبي أو الوحش، أراد به تشبيهه لعشيقته التي ترفضه وتعرض عنه، فتظهر في ذلك خدّا أسيلا، وتستقبله بعين من عيون الظباء، فلا يمكن فهم دلالة هذا الموضع أو المكان إلاّ بربطه بحالة الشاعر النفسية أثناء رفض الحبيبة مقابلته.

وقوله كذلك:

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل[2]

استعمل الشاعر ظرف المكان "فوق" ليدّل على الأعمال التي تقوم بها العشيقة قبل نومها في وقت الضحى، فهي تنشر دقاق المسك فوق فراشها استعدادا للنوم فمن خلال سياق هذا القول يحاول الشاعر أن يبين بأن العشيقة كثيرة النوم وقت الضحى، وبأنها تعيش حياة نعيمة، رغدة باعتبار اشارته إلى أنها لا تباشر عملا بنفسها، بل هناك خدما يخدمونها، وهذا يدل على أنه يتابع كل صغيرة وكبيرة عن عشيقته ويبدي لها اهتماما كبيرا وهذا راجع إلى حياته ومشاعره حيث أفنى حياته في التغزل بالعشيقات ووصفهن.

ويفتخر الشاعر بكل ما يصادفه في حياته أو بكل شيء ترك عنده آثار فلم يكتف بذكره للأطلال ومنازل الحبيبة، ويرى أن الدموع أفضل حل له لينسى آلامه وأحزانه وذلك بمجرّد ذكره لأماكن لهوه وصباه، بل ذكر حتى الواد الذي قطعه ويفتخر أنه تحدّاه بالرغم من وجود الذئب، فيقول:

وواد كجوف العير قفر قطعته   به الذئب يعوي كالخليع المعيّل

فرغم شدّة عمق الواد إلاّ أنه يفتخر بقطعة وسيره لمدّة طويلة والذئب يعوي فهذا المكان بالرغم من وحشيته، وشراسته، بالاضافة في المواصفات العامة، كالعمق ووجود الذئب...الخ، ولد في نفسية الشاعر الاحساس بالرغبة في تجاوز ذاته الكئيبة والحزينة، وما تعتبرها من

1- ينظر : امرؤ القيس، الديوان، ص 42.
2- ينظر : المصدر نفسه، ص 44.

حالات معينة، مردّها الأمس والتذكر والألم وذكر الشاعر للواد توحي إلى العلاقة التي تربط الشاعر بكل مكان يقف عنده وفي قوله أيضا:

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

بعد أن يقاسي الشاعر وحشة الديار وذرفه الدموع عليها متذكرا أحبابه والمنزل التي تعتبر جزء من ذاته وشخصه، ويجاهد الليل الطويل الذي قطع ألفاس الأمل لديه، ثم رحلته المضنية مع الوادي المقفر مع الذئب الجامع، نجده يكسر قيود الوحدة والعزلة لينطلق على فرسه يبحث عن الأمل والحرية والألفة ولو مع الطبيعة الحيوانية، فهذا يعني أنه قاسى العزلة والوحدة حتى أتته الفرصة للتحرّر من هذه القيود حتى أنه يباكر في الصيد والطيور بعد مستقرة على مواقعها وهذا ما نجده أيضا في وصفه لفرسه:

ضليع إذا استد برته سد فرجه يضاف فويق الأرض ليس بأعزل(1)

فنجد أن فرسة أو حصانه أداة لتحرّره من هذا الانعزال الذي يعيشه، فمن خلال وصفه بالعظمة والتمام، ومن خلال استعمال لظرف المكان "فويق" الدّال على التصغير أراد به الشاعر التقريب أي يقرب حصانه إليه من كثرة أنه يواسيه ويجعله ينسى قليلا همومه، ويبعده من وحشة الوحدة والنفي.

وما يلاحظ على معلقة امرئ القيس أن حديثه عن الأمكنة اتصفت بالتعدّد، والتنّوع وذلك راجع إلى تجربته الذاتية الوجدانية المليئة بالذكريات الممتزجة بالحلو والمر وبمشاعر الحزن والانكسار، فنجده في بعض المقاطع يتحدث عن الأماكن التي شكلت عنده الهاجس المحوري وانشغاله العام، وذلك في المقاطع الأخيرة في المعلقة عند وقوفه على وصف مظاهر الطبيعة، فيقول:

قعدت له و صحبتى بين ضارج(2) **وبين العذيـــب بعدمـــا متأملـــي**
على قطن بالشيم أيمن صوبه وأيسره علـــى الستـــار فيذبـــل(3)

1-ينظر: امرؤ القيس، الديوان، ص59.

2- أرض مشرفة على بارق قرب الكوفة.

3- جبل بأرض لبني أسد.

ومر على القنان[1] من نفيانـــه — فأنزل منه العصم من كلّ منـــزل

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة — ولا أطــما إلا مشيـــا بجـــنـــدل

كأن ثبيرا في عــــــرانين و بله — كبير أناس فـــي بجـــاد مزمّـــل

كأن درا رأس المجيمر غـــدوة — من السيل والأغثاء فلكه مغـــزل

وألقى بصحراء الغبيط بعـــاعه — نزول اليماني ذي العياب المحمّل

كأن مكاكـــي الجـــواء غديـــة — صبحن سلافا من رحيق مفلفـــل

كأن السباع فيه غرقى عشيـــة — بأرجائه القصوى. أنابيش عنصل[2]

إن ذكر الشاعر لهذه المناذج من الأمكنة على غرار الضارج، العذيب، قطن ويذبل، تيماء وغيرها راجع إلى انشغاله بما تخبئه له الأيام وخوفه من المستقبل، فهي تشكل رؤية الشاعر الفكرية والتأملية للوجود وللحياة، فهي نهاية درامية تمثلت في استعراض جميع المظاهر من لمعة البرق حتى نزول المطر ورؤيته للسيول الجارفة التي أتت على الأخضر واليابس، فذكر الشاعر لهذه الأماكن واستعراضها على هذا النحو المنطقي الشامل والتفصيلي مع عنايته الفنية بغرض اجلاء مشاهد هذا الاستعراض وصوره «ليبرز أهميتها في حياته، فقد قضى جزء من حياته يحاول استرجاع ما سلب منه، وقد أوضح الشاعر مدى العلاقة الوجدانية الوطيدة التي تربطه بهذه الأماكن، وهي ليست علاقة وجدانية تختزل ذكريات الشاعر فحسب، بل تتجاوز هذا الشعور إلى حلم يراوده باستمرار، وظل هاجسه الوحيد من قتل والده، يتمثل في طموحه إلى استرداد ملك أبيه»[3]

ويظهر الجانب التداولي في استعراض هذه الأمكنة في أن الشاعر كأنه في حوار أو خطاب جنبا إلى جنب مع هذه المظاهر البيئية والطبيعية، كما أن للسياق دور كبير في بيان دلالة هذه المقاطع وفي هذا تقول أوريكيوني، «أنه يمكن تحديد الاطار المكاني من خلال مظاهره الفيزيائية البحتة، وتحديد المكان من حيث كونه مغلقا أو مفتوحا، عاما أو خاصا، واسعا أو ضيقا، وتحديد كيفية التخاطب وجها لوجه، جنبا لجنب. والمسافة الفاصلة بينهما».[4]

1- قيل جبل يقع في الجيهة الغربية من الحجاز.

2- ينظر : امرؤ القيس، الديوان، ص 65.

3- باديس فوغالي، الزمان و المكان في الشعر الجاهلي، ص281.

4- Karbrat- Orecchioni, Les Interactions Verbales, Tom1, Armand Collin éditeurs, Paris 1999.p.68.

وعموما فإن استعمال الشاعر للإشارات الزمتنية والمكانية تميزت بوصف الشاعر لآلامه وحزنه، فالاشاريات الزمنية عنده تمتلت في الزمن الماضي الذي يمثل للشاعر الزمن الجميل زمن الدار العامرة بأهلها وألأحبة أنيسة بوجودهم، والزمن الحاضر زمن الوحدة والغربة والاعتزال، زمن التشاؤم. فالليل ارتبط عنده بالتفكير والتأمل، أمّا اليوم فقد ارتبط باسترجاع ذكرياته مع حبيبته.

أمّا الإشاريات المكانية مثلث تفسير لكلام الشاعر، على أساس أنها تمثل جزء من حياته، وعبّرت عن مختلف مغامراته. ويعتبر الطلل نواة المكان لديه، وقد ذكر الشاعر أماكن لا يعرف مرجعيتها إلاّ من خلال دراسة حياة الشاعر وظروف حياته.

5- ألفاظ القرابة:

اعتبرت أوريكيوني الألفاظ ذات السمة الأسرية، عناصر ذاتية توحي إلى ذاتية المتكلم بالرغم من قولها أنها ليست قرائن اشارية، لكنها تستحق الاهتمام بها، لأن بمجرّد التلفظ بها فإن المتكلم يشير إلى الذاتية في كلامه. ونجد الشاعر استعمل لفظ القرابة في سياق حديثه عن أسماء عشيقاته يقول:

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

تشير أم الحويرث وأم الرباب إلى أسماء النساء التي عرفهن الشاعر في حياته وتعتبر عناصر اشارية لأن الشاعر يذكرهما ويشير إليها بكلمة "أم" الدّالة على أنهن أمهات يفسّرهما المعين الحويرث والرباب، وذكر الشاعر لأسمائهن دلالة على علاقة القرابة التي تربطهما، وباستثناء هذا المقطع لا نجد ألفاظ ذات القرابة الأسرية في المغلقة، وهذا راجع إلى الغرض العام المعلقة وإلى حياة الشاعر بصفة عامة.

المحور الثاني: الذاتيات

تتمثل الذاتيات في الأحكام ذات القيم الوصفية النعتية والقيمية، التي يطلقها المتكلم إزاء موضوع ما أو إزاء ما يقول، وتكتسي هذه الأحكام أهمية كبيرة لأنها تسمح بمعرفة كيفية تمكن المتكلم من إنشاء الموضوع نفسه، موقعه إزاء الموضوع إضافة إلى الهدف من الملفوظ، وتكمن

هذه الأهمية «فيما ينبثق منها من أحكام للقيمة ورأي المخاطب إزاء خطابه، فمدام التلفظ بأقوال (ملفوظات) يفيد التعبير عن الأحاسيس والمشاعر وكذلك جميع الأغراض، فهي لا تنفلت عن ظاهرة الحكم قصد التقدير والتقويم، يذهب إلى ذلك أحد الباحثين بقوله: ويرد الحكم بمعناه لدى الأمم كلها ولدى أي إنسان يزاول العملية أي الحكم بالقيمة بأن يقول هذا حسن، وهذا قبيح... ويكون الحكم مرادفا للتقويم والتقدير»[1]، ويكمن الغرض التداولي لهذه الأحكام في أنها تكسب قيمتها من السياق، كما تكشف عن الذاتية عن طريق ربطها بالإشاريات خصوصا الإشاريات الشخصية التي تعتبر المؤشر الذي بفضله يعترف المتكلم كونه المقيم (Evaluateur). كما أشارت "أوريكيوني" إلى أهمية هذه الأحكام في الكشف عن الذاتية في اللغة، فهي ترى أنها أحكام أو أوصاف يطلقها المتكلم عن الموضوعات الخارجية انطلاقا من مشاعره وبنية شخصيته، كما ترى أنه من الصعب الالتزام بالموضوعية في مختلف أنواع الخطابات مهما كانت نزعتها العملية، فهذه الأحكام تدل على شخصية وذاتية المتكلم ممثلة بصورة لسانية.

الملاحظ على الأحكام الواردة في المعلقة أنها وصفية أكثر منها قيمية ونستطيع القول أنها وصفية في جل أبيات المعلقة، وهذا راجع إلى السياق العام لها وغرض الشاعر من نظمها وهدفه من إيراد هذه الأحكام الوصفية، وقد وردت معظمها ممثلة في صور فنية أبدع الشاعر في تمثيلها وقد جاءت الأحكام في هذه القصيدة على النحو التالي:

يقول الشاعر:

ترى بعر الأرآمِ في عرصاتِها — و قِيعانها كأنّـــه حـــب فلفـــل

كأني غداة البينِ يوم تحـــملوا — لدى سمراتِ الحي ناقِف حنـــظل

وإن شفائي عبرة مهراقـــة — فهل عِند رسم دارس من معولِ؟

الشاعر في هذه الأبيات أطلق حكما وصفيا، يظهر ذلك من خلال الصورة الفنية المتمثلة في التشبيه، وما يشير إلى هذا الحكم كذلك هو الإشاريات المتمثلة في ضمائر المتكلم والمخاطب، ففي سياق هذه الأبيات نجده يورد تجربته الشخصية من خلال ذكر الأماكن ووصفها، والبكاء عليها، ففي البيت الأول يصف الديار التي كانت مأهولة بأهلها مأنوسة بهم خصبة الأرض، وكيف أصبحت في الزمن الحاضر حيث غادرها أهلها، وكيف نثرت الظباء

1- ذهبية حمو الحاج، نظرية التلفظ وتداولية الخطاب، ص 162.

بعرها في ساحاتها وكأنه حب الفلفل في مستوى رحباتها، كما يصف حالته عند وقوفه على رحيل أحبابه ويصفها بناقف الحنظل من كثرة حيرته وحزنه على رحيلهم وفراقهم، كما يشير إلى أن شفاءه من الحالة التي يوجد عليها بالعبرة المهراقة، فشفاؤه من داءه ومما أصابه وتخلصه مما دهمه يكون بدمع يصبه.

ويقول أيضا:

ألا رب يـــوم لك منهنّ صالح   ولا سِــيما يوم بدارة جلجل

في هذا البيت يقدر الشاعر يوم دارة جلجل، ويقيمه بقوله يوم صالح فيعد ذلك أتم الأيام وأحسنها، أي ذلك اليوم الذي ظفر فيه بوصال النساء كما ظفر أيضا بعيش صالح ناعم منهن، فتقييم الشاعر لهذا اليوم بالمدح يدل بذلك على حكم قيمي ذاتي.

وفي سياق وصفه لمغامرته العاطفية نجده يطلق العديد من الأحكام الوصفية خاصة، وهذا راجع إلى حالته النفسية وإلى عاطفته، لأنه يتذكر هذه الأيام التي قضاها مع معشوقاته تخفف عنه مرارة الذكريات يقول في وصف جمال محبوباته:

إذا قامتا تضوع المسك منهما   نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

فقد شبّه الشاعر طيب ريا محبوباته بطيب نسيم هب بريا القرنفل وأتى بريّاه، فهذا يدل على جمالهما، فهو ينسب إليهما صفة الجمال والطيب، كذلك وصف حالته بعد بعدهما بالسيئة، وهنا يظهر إخفاء الشاعر ذاتيته، لكنه أظهرها من خلال هذه الأوصاف والأحكام التي يعترف من خلالها بأنه المقيم والواصف، كما نجد قوله كذلك:

ويوم عقرت للعذاري مطيتـــي   فيـــا عجبا من كورها المتحمل
فظلّ العذارى يرتمين بلحمـــها   و شحم كهداب الدمقس المفتل
فقلت لها:سيري وأرخِي زمامه   ولا تبعديني من جناك المعلـــلِ
ويوماعلى ظهرالكثيب تعــذرت   عليّ، وآلت حلفة لم تـــحلَــّلِ

ففي هذه الأبيات نجد الشاعر يصف العشيقة، وكأنه في حوار معها، فهذه الأوصاف التي يصف بها العشيقة أثرت على خطابه، لأنه في حالة وصف اللحظات الجميلة بالرغم من قلّتها التي نال فيها رؤيته لمحبوبته، كما نلاحظ أيضا حضور المتلقي في هذه الأبيات، من خلال

حضور ضمير المخاطب المتفاعل في خطاب الشاعر، فأراد بذلك أن يثبت أو يشير إلى أنه في حالة انفعالية، فكان بذلك الحكم انفعالي وجداني.

وقوله أيضا:

أغركِ مني أن حبك قــاتلي　　　وأنّكِ مهما تأمري القلب يفعل؟

يحكم الشاعر في هذا على حبه لحبيبته بالقتل أو الموت، فيقول أن حبه لعشيقته يقتله، فكلما أمرته بشيء فعله، واستجاب لطلبها، لكنها تبقى تتدلل عليه، وهذا ما يزيد من حزنه وألمه، ويمكن اعتبار هذا الحكم في مقولة القبح، التي تشير إلى حكم ذاتي صادر من وجدان الشاعر وهذا ما يظهر أيضا في قوله:

وما ذرفت عيناك إلاّ لتضربي　　　بسهميكِ فِي أعشارِ قلب مقتّل

يصف قلبه بالذليل والجريح الذي ضربته الحبيبة بسهمها، المتمثل في دمع عينيها، حتى تكسب قلبه.

كما نجده يصف محاسن محبوبته، وانتصاراته في مغامراته العاطفية، إذ نجده يتغنى بحبيبته ونراه يمضي في تصوير محاسنها، وهذا تعبير غير مباشر عن تغنيه بنعيم الحياة وجمالها إذ يقول:

وبيضة خدر لا يرام خباؤهــا　　　تمتعت من لهو بها غير معجل

إذاما الثريا في السماء تعرضت　　　تعرض أثناء الوشاح المفضــل

الشاعر يصف حبيبته بأنها امرأة صافية اللون نقية طاهرة لأنها لا تغادر خدرها، وهذا حكم يحمل غرضا نفعيا يريد الشاعر إيراده ليبين أنه يحصل على ما يريده، كما يوضح الزمن الذي يأتيها إلى خدرها وذلك وقت إبداء الثريا عرضها في السماء، ثم شبه نواحيها بنواحي جواهر الوشاح، فالشاعر في هذه المغامرة يقدر ما يقوم به للوصول إلى محبوبته.

ويقول كذلك في هذه الأبيات واصفا محبوبته وصفا أكثر دقة:

مهفهفة بيضــاء غيــر مفاضــة　　　ترائبهــا مصقــولــة كالسجنــجــل

كبكر المقانـــاة البياض بصفــرة	**غذاها نميــر المـــاء غيــر محلـــل**
تصد وتبدي عن أسِيـــل وتتقـــي	**بناظرة من وحش وجــرة مــطــفل**
وجيد كجيد الريم ليــس بفاحــش	**إذا هـــي نــصــتـــه ولا بمعــطــل**
وفرع يــزين الــمتن أسود فاحم	**أثـــيث كقنو الــنـــخلة المتعــثكــل**
غــداثره مستشزرات إلـــى العـــلا	**تــضل العقاص في مثنـــى ومرســل**
وكشـــح لـــطيف كالجديل مخصر	**وساق كأنـــبـــوب السقـــي المـــذلل**
وتضحي فتيت المسك فوق فراشها	**نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضـــل[1]**

تطغى على هذه الأبيات الأحكام ذات القيم الوصفية، فالشاعر أطلق العنان لوصف محاسن وجمال المحبوبة، فوصفها وشبهها بمختلف أنواع الصفات، مهفهفة، بيضاء، غير مفاضة، ترائبها مصقولة كالسجنجل، غدائره مستشزرات، العقاص في مثنى ومرسل، كشح لطيف كالجديل مخصّر، وساق كأنبوب السقي، نؤوم الضحى، والملاحظ أن هذه الصفات الذي ذكرها الشاعر، تؤلف في مجملها امرأة فائقة الجمال، مكتملة وامرأة مثالية، افتتن بها، جازف من أجلها، تجاوز جميع العقبات من أجل الوصول إليها، ومن هنا يتضح أن هذه المرأة تمثل إحدى لذاذاته التي حرص على تمثيلها في غزله، فهذه الصفات جميعا، تشكل النفس الذاتية للشاعر، وتجربته الوجدانية.

ولذلك أصبحت المرأة حقلا مثمرا يانعا، «فالذؤابتان غصنان، وهي بيضة الأدحي غذاها ماء نمير، وشعرها (قنو نخلة)، وساقها (أنبوب سقي) الذي ذلله الإرواء، وجيدها (جيد الريم)، وهي صور لعلاقات منظورة تبدو فيها المرأة مترفة مدللة قد جرى في عودها النماء والخصب»[2]، وتشير هذه الأوصاف إلى ذاتية الشاعر من خلال هذا الوصف الدقيق وكذلك استعماله لضمير الغائب المتصل الذي يشير بشكل دقيق إلى الذاتية، ويضيف دائما في نفس السياق:

وتعطو برخص غير شثن كأنّـــه	**أساريع ظبي أو مساويك إسحِل**
تضِيء الظّلام بالعشـــاء كأنّهـــا	**منارة ممســـى راهـــب متبتـــل**
إلى مثلها يرنو الحليـــم صبابـــة	**إذا ما اسبكرت بين درع ومِجول**

1- امرؤ القيس، الديوان، ص 44.

2- سامي يوسف أبو زيد ومنذر ذيب كفافي، الأدب الجاهلي، ص 131.

تسلّت عمايات الرّجال عن الصّبا وليس فؤادي عن هواك بمنسل
ألاّ ربَّ خصم فِيك ألوى رددتــه نصيح على تعذالهِ غيــر مؤتــل

تظهر ذاتية الشاعر من خلال الأوصاف التي وصف بها محبوبته، وقد مثلها في صورة لسانية بديعية، أراد من خلالها أن يبين مدى ارتباطه بها ومدى حبه لها، وفي نفس الوقت يخفي وراء ذلك حسرته ووجعه على هجرانها له وبعدها عليه، وما هذه الأوصاف إلا ذكريات تخفف عنه بعض آلامه وحسرته على الحالة التي آل إليها، وقد سمح ضمير الغائب الذي يدل على أوصاف المحبوبة ممتزجا أحيانا بضمير المتكلم بتحديد موقف الشاعر إزاء خطابه وأقواله الملفوظة، ودرجة التزامه بذلك وكذا يبرز بشكل واضح ذاتيته، وتظهر ذاتية الشاعر حالته النفسية وكذا شخصيته من خلال سياق هذه الأبيات التي تغنى فيها وتغزل بمحبوباته، كما تظهر أيضا حياته التي عاشها في لهو وترف والتشبيب بالنساء، وأهدر كل وقته في وصف وتمثيل محاسن المحبوبة.

ونجده في سياق آخر يصف الليل ويحكم عليه بالطول الذي يزيد في عذابه وألمه يقول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنــواع الهمــوم ليبتلــي
فقلت له لمــا تمطّــى بِصلبِــه وأردف أعجازا ونــاء بكلكــل
ألا أيها اللّيل الطّويل ألا انجلي بصبح، وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كــأن نجومــه بكل مغار الفتــل شدّت بيذبــل

يتضح من خلال هذه الأبيات أن للشاعر قدرة على وصف النفس وأحوالها، خاصة إذا كان مثقلا بالهموم، فقد أفرغ همومه في وصف الليل ومخاطبا إياه، حيث كان مصدر عذاب لهم بطوله، وجفوته، فقد شبّه الشاعر الليل بموج البحر أي شبّه ظلام الليل الدامس في هوله وصعوبته ونكارة أمره بأمواج البحر، فقد أرخى هذا الليل ستور ظلامه مع أنواع فنون الحزن والهم، وتظهر هذه الأوصاف ذاتية الشاعر من خلال استعماله لضمائر المتكلم والمخاطب، ويشير ولو ضمنيا إلى أنه يمتدح بالصبر والجلد على مختلف أنواع الأحزان والآلام. وما يلاحظ على شعراء الجاهلية أنهم اعتمدوا على الوصف في جل أعمالهم الشعرية، وقد أسسوا عليه نمو الأحداث فيها، وتطوّر المواقف، وبنو عليه الحركة الدرامية، مما جعل الشعر الجاهلي أغلبه

وصف نابع من تغني الشاعر بحالته ومغامراته وميله إلى الذاتية[1]، وهذا ما يجعل الشعر الجاهلي يحمل غرضا تداوليا انطلاقا من غرض الوصف، لأنه يكشف عن الذاتية التي يحاول إخفاءها عن طريق مختلف الصفات المستعملة في المعلقة إضافة إلى ربطها بالضمائر خاصة ضمائر الشخص.

ويقول أيضا مفتخرا بنفسه ومظهرا لذاتيته من خلال مدحه لنفسه بخدمته الرفقاء في السفر:

وقربة أقوام جعلت عِصامها   على كاهل مني ذلول مرحل

يتمدّح الشاعر بتحمل أثقال الحقوق ونوائب الأقوام من قرى الأضياف، وبهذا فهو يعطي حكما قيميا على نفسه بالصبر والقدرة على تحمل كل الشدائد، وخدمته كل الرفقاء في السفر.

إن تضمين بعض الصفات الإنفعالية الوجدانية النابعة من شخصية ووجدان الشاعر تؤثر على الخطاب، خاصة إذا كان الشاعر يقدر كل ما تراه عينه ويصفها بصفات تحمل قوة إنشائية مظهرة الحياة الاجتماعية للشاعر وهذا ما نلاحظه عند وصف الشاعر للواد الذي يفتخر أنه قطعه، وكذلك وصفه للذئب الذي التقى به، وشبه حالته بحالة هذا الذئب الذي يعوي من شدة الجوع:

وواد كجوف العير قفر قطعته   بهِ الذِّئب يعوي كالخليع المعيــل

فقلت له لما عوى: إنَ شأننا   قلِيل الغنى إن كنت لمــا تمــول

كلانا إذا ما نال شيئا أفاتــه   ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

شبّه الشاعر الوادي الذي قطعه بجوف العير، وهو الحمار الوحشي، فهو بذلك يصفه بالخالي من النبات والإنس وهو ما يشبه بطن الحمار، فهو يفتخر بأنه قطعه سيرا، وكان في ذلك المكان ذئب يعوي من شدة الجوع الذي شبهه كذلك بالمقامر الذي كثر عياله ويطالبه عياله بالنفقة، وهو يصيح بهم ويخاصمهم إذ لا يجد ما يرضيهم به، كما نجده يشبه نفسه وحالته بالذئب الذي لم يجد ما يرضي به بطنه وهو لم يجد ما يرضي به هواه، كما شبه نفسه بالذئب أيضا عندما أطلق عليه حكما قيميا يتمثل في التبذير أي أنهما مبذران، أي إذا ظفرا بشيء فوّتاه على

1- علي أحمد الخطيب، فن الوصف في الشعر الجاهلي، ص 13.

أنفسهما، أي يرى نفسه أنه إذا ملك شيئا لم يعرف كيف يحافظ عليه بل ينفقه ويبذره وبالتالي فقد عاش مهزولا طول حياته.

ونجد الشاعر يصف فرسه لونا وحركة وشكلا، وهذا راجع إلى تعلقه بفرسه وحاجته له في السلم والحرب وفي الحياة جميعا وهذا ما جعله يفتخر بها في معلقته فيقول:

مكر مفــر مقبــل مدبــر معــا **كجلمود صخرحطّه السيل من عل**

كميت يزل اللّبد عــن حال متنـــه **كما زلّــت الصفــواء بالمتنــزل**

على الذبل جياش كأن اهتِزامـــه **إذا جاش فيه حميه غلي مرجــل**

مسح إذا ما السابحات على الونى **أثرن الغبـــار بِالكدِيــدِ المركّــل**

يزل الغلام الخــفّ عن صهواتــه **ويلوي بأثواب العنيــف المثقّــل**

يصوّر امرؤ القيس فرسه ويحكم عليه بصفات كثيرة، فوصف شكله، وحركته ولونه، فهو يكر يزل ويقبل ويدبر إذا ما أريك منه ذلك في لحظة خاطفة، وهو في أثناء ذلك يصب عدوه وجريه صبا بعد صب، كما يصف فرسه بأنه يزل ويزلق الغلام الخفيف عن مقعده من ظهره ويرمي بثياب الرجل العنيف الثقيل، كل هذه الصفات والأسماء تدل على حب الشاعر لفرسه، ويصل أحيانا إلى تفضيل هذا الفرس على نفسه نظرا لأهميته في حياة الشاعر الجاهلي بصفة عامة، ويقول كذلك:

دريــر كخــذروفِ الوليــد أمرّه **تتابــع كفّيــه بخيــط مــوصّــل**

له أيطــلا ظبــي وساقا نعـــامة **وإرخاء سرحان وتقريــب تتفــل**

ضليع إذا استـــدبرته سدّ فرجـــه **بضاف فويق الأرض ليس بأعزل**

كأن على المتنين منه إذا انتحـــى **مداك عــروس أو صلاية حنظلِ**

كـــأنّ دمـــاء الهـــادِيات بنحـــره **عصـــارة حِنّاء بِشيــب مرجّــل**

يقدر الشاعر فرسه وذلك بوصفه بمزيد من الصفات، عن طريق استخدام التشبيه الذي يؤدي غرضا واحدا أو يرمي إلى تصوير الحقيقة تصويرا غير ملوّن وغير مزيف، فهو يصف ما تراه عيناه بكل دقة، فهو يعرض للسانه القول كما يعرض لعينه، فلا يجيء في كلامه من بدائع الصنعة، وهذا دليل على قوته التي تغمر فؤاده، فتعلقه بفرسه جعله يسترسل في إطلاق الأوصاف عليه، فهو مديم السير والعدو ومتابع لهما وعظيم الأضلاع، كما نجده يشبه حتى

دماءه الجامد على نحره من دماء الصيد بما جف من عصارة الحناء على شعر الأشيب، وتكشف هذه الصفات كلها عن ذاتية الشاعر بالرغم من عدم ذكرها وإنما أظهرها سياق الخطاب الذي قيل فيه هذه الأبيات فهي تشير إلى حكم ذات قيمة وصفية ذاتية، لأنها تعبر عن مشاعر وأحاسيس الشاعر.

ويتعرض الفارس أثناء رحلته للصيد "لسرب نعاج"، وبالتالي فالشاعر لا يفوت هذه الفرصة، ليصف هذا السرب، فينهز فرسه ناحية السرب الذي أخذ يعدو وكأنه العقد الذي انفرطت حباته، فيلحق الفرس بأوائل السرب تاركا أواخره ثقة منه في اللحاق بها، ويصيب منها ما يشاء دونما نصب يجعله يتصبب عرقا يقول:

فعــنّ لنا ســرب كــأنّ نعاجــه عــذارى دوار في ملاء مذبّــل

فأدبرن كالجزع المفصّــل بينــه بجيد معم في العشِيرة مخــول

فألحقنــا بالهــاديــات ودونــه جواحِــرها في صرّة لم تزيّــل

ينتقل الشاعر إلى وصف سرب من البقر الوحشي الذي اعترضه أثناء خروجه للصيد، ونلاحظ أنه استعمل ضمير المتكلم الجمع وهذا يدل على تشارك الرأي وتقاسمه بين المخاطب والمتلقي المتمثل هنا في رفاقه المشاركون معه في الصيد، وهذا يشير أيضا إلى مدى انتماء الشاعر إلى خطابه، فهو يتشارك مع أصحابه في وصفهم لهذا السرب من البقر الوحشي، فقد ذكر الشاعر جملة من الصفات هي: بيضاء اللون وهذا ما جعله يشبهها بالنساء العذارى، تسود، أركاكها وخدودها وشدة جريه وقوة عدوه وتحمل هذه الأبيات معالم الحياة الجاهلية والبيئة البدوية الصحراوية من خلال ذكره ووصفه لجملة من الحيوانات التي تعلق بها. وقوله أيضا:

ورحنا يكاد الطّرف يقصر دونــه متى تــرقّ العيــن فيه تسفّــل

فهذا البقر كامل الحسن رائع الصورة، تكاد عيونهم تقصر من كنه وحسنه ومهما نظرت عيونهم إلى أعال خلقه اشتهت النظر إلى أسافله، فهذه الأحكام النعتية تكشف بشكل غير مباشر عن نفسية الشاعر الذي يجد في استذكار هذه الحيوانات وأوصافها رجوعا إلى الزمن الماضي بكل أفراحه ومغامراته الجميلة وحياته الهادئة التي لم يبق منها إلا الذكريات، فهو يكشف عن آلامه وهمومه من خلال هذه الأحكام النعتية التي تكشف عن غرض تداولي وهو إظهار ذاتيته.

ولم يتوقف الشاعر عند وصف الأطلال ومحاسن المحبوبة، كذلك الليل، وجميع الحيوانات التي يلتقيها عند خروجه للصيد فحسب، وإنما وصف كذلك جميع المظاهر الطبيعية التي تحدث أمامه، فوصفها وصفا دقيقا، فكان يراقب البرق في مجلس أنس أي أثناء لحظات استمتاع الشاعر برفقة أصحابه في قعدة أنس وتلذذ بما طاب من الطعام بعد صيد وافر، وهذا يوضح بشكل كبير الجو النفسي الذي كان يغمره حالة وميض البرق يقول:

أصاح ترى برقا أريك وميضــه	**كلمــع اليدين في حبيّ مكلّــل**
يضيء سناه أو مصابيح راهــب	**أمال السّليــط بالذّبال المفتّــل**
قعدت له وصحبتي بين ضـــارج	**وبين العــذيب بعدما متأمّــل**

شبّه الشاعر لمعان البرق بصورة لمعان مصباح الراهب المتنقل عبر الوهاد في تعثر تارة، واستقامة أخرى، ففي الأولى يزيد الفتيل اشتعالا أما الحركة الثانية يكاد يخبو النور، فتوظيف المصباح في هذه الصورة يوضح أن الشاعر يكابد حدّة الإحساس بالقحط والجدب، كما يكابد عتمة ليل الصحراء الدّاجي، كذلك لإحساسه بالحاجة إلى النور يبدد الظلمة الطاغية، لأن الليل يثير القلق والأرق في حياته، فهو يشكل كابوسا يضغط على أنفاسه، فتحمل صورة تشاؤمية للحياة، فمن خلال وصف الشاعر للمعان البرق يعكس نفسيته وما بداخلها من مشاعر تتوق إلى انبلاج الفجر، وبزوغ شمس الصباح وتكشف هذه الأحكام الوصفية البرق عن شخصية الشاعر وذاتيته، حين يوضح أنه عانى من وطأة الليل، فقد كان يصبو إلى صبح جديد مليء بالانشراح.

هذا على مستوى مراقبة الشاعر للمعان البرق ووصفه، ينتقل بعدها إلى وصف السحاب المثقلة المحتقن في تيماء الأرض وانفجارها إل أن غمرت الأرض بالمياه فيصف هذه الصورة على أنها كارثة عمت الأرض في قوله:

على قطن بالشّيم أيمــن صوبــه	**وأيســره على الستـــار فيذبــل**
فأضحى يسحّ الماء حول كتيفــة	**يكبّ على الأذقان دوح الكنهبــل**
ومـــرّ على القنـــان من نفيانِـــهِ	**فأنزل منه العصم مِن كلّ منـــزل**

يصف الشاعر عظم السحاب وغزارته وعموم وجوده، فهو يراقبها وهي تنتقل من موضع إلى آخر، فأضحى هذا الغيث يصب الماء فوق كتيفة ويلقي الأشجار والعظام، ولم يترك شيئا من القصور والأبنية إلا واقتلعها، فهو أشبع مراحل سقوط المطر وصولا إلى السيل

الجارف، فترى المطر الهاطل قد أتى على المرتفعات وملأ المنخفضات، وامتد السحاب بين بلدين متباعدين حتى ليخيل إليك أن في السحاب مقاما معلقا، وكلما تخيل إليك أن الرياح سنسوقه إلى بلد آخر انضم إليه سحاب آخر.

فبهذه الأوصاف يؤكد الشاعر قدرته على وصف كل ما وقعت عليه حدقته المبصرة، بذوق بارع، فكانت صورة حية لحياته وكذلك لبيئته الصحراوية الجاهلية التي استمد منها هذه الأوصاف والتشبيهات والأمثال، كما كانت هذه الأوصاف التي وصف بها المطر والسحاب نابع من خاطرته ومشاعره وعدم تعوده على مثل هذه المظاهر، فبمجرد حدوثها حوّلت حياته إلى خوف وكابوس وقربه من الغناء وانتهاء حياة اللهو والمرح، فيظهر من خلالها علامات تسمح بتحديد موقفه إزاء هذه المظاهر الطبيعية وبالتالي إظهاره لذاتيته وذلك من خلال السياق العام للأبيات.

ووظف الشاعر في مشهد وصفه لنزول المطر أدوات فنية، استمدها من الطبيعة لاستجلاء بعض الظواهر المادية، تمثلت هذه الظواهر في الجبل، الذروة، الحشيش، الشجر، الكلأ، التراب وغير ذلك، وهنا إشارة إل دور الطبيعة في حياة الشاعر، فهي تصبح فاعلا مؤثرا، وحيويا في كشف مشاعره إذ يقول:

وتيماء لم يترك بها جذع نخلـــة	**ولا أطمـــا إلاّ مشيـــدا بجنـــدل**
كأنّ ثبيـــرا في عرانِيـــن وبلـــه	**كبيـــر أناس في بجـــاد مزمّـــل**
كأنّ ذرى رأس المجيمِر غـــدوة	**من السّيل والأغثاءِ فلكة مغـــزل**

وصف هذا المشهد وكل ما يحمله من دمار لتلك الطبيعة الهادئة الصامتة، يتضح جليا في ضوء الشواهد التي طعمت محطات الوقوف عند وصف مظاهر سقوط المطر، وما يترتب عن حركة الطبيعة بعد ذلك من خصب ونماء، رغبة الشاعر استذكار الزمن الماضي للتفاؤل بالزمن الحاضر خاصة وأن هذه المظاهر وصفها وهو في لحظة أنس ولهو وفي جلسة شرب الخمر، وكان المطر امتداد طبيعي لشرب الخمر.

بالرغم من وصفه لسقوط المطر بأنه كارثة طبيعية تفضي إلى الهلاك، إذ أن المطر تكتسح سيوله كل ما تصادفه في طريقها، فتقتلع الأشجار الكبيرة وتنزل الوعول التي اعتصمت بأعالي الجبال وتهدم البيوت إلا ما كان مشيدا من الصخور الصلبة، وتقتل السباع الضارية التي تطفو على رؤوسها بعد موتها على سطح الماء وشبهها بأصول البصل البري لأنها متلطخة

بالطين والتراب، إلا أن هذه الأمطار تكسب الشاعر روحا تفاؤلية تستمد قوتها من مظاهر الخصب والنماء، وفرحة الطيور فيقول:

وألقى بصحـــراء الغبيطِ بعاعـــه	**نزول اليماني ذي العياب المحمّل**
كـــأنّ مكـــاكيّ الجـــواءِ غدّيـــة	**صبحن سلافا مِن رحيقٍ مفلفـــل**
كأنّ السبّـــاع فيهِ غرقى عشيّـــة	**بأرجائه القصوى أنابِيش عنصـــل**

فمن خلال هذه الأبيات نجد الشاعر يتفاعل بنزول هذا المطر، فيقول بأن هذا المطر ألقى ثقله بصحراء الغبيط فأنبت الكلأ وضروب الأزهار وألوان النبات فصار نزول المطر به كأنه استيقاظ الطبيعة بعد موتها وشبه هذا النزول بذلك التاجر اليماني الذي يرمي بكل ما أتى به من ثياب على المشترين قصد بيعها، كما رم مشهد فرحة الطير وتزايد نشاطها كالسّكر من شدة تغريدها بجدّة ألسنتها.

لقد حرص الشاعر على رسم هذه المشاهد والصور لأنها تمثل إحدى المظاهر التي أثرت على حياته، والتي جعلته يتشاءم برؤية هذي المشاهد التي تمثل بالنسبة إليه موتا بطيئا، وفي ذات الوقت تجعله يتفاعل بالخصب والنمو واستمرار الحياة، فهي تمثل إقدام الشاعر على الحياة والتفاعل معها بشكل إيجابي، وهذه الصفات كذلك تكشف شخصيته المتقلبة المضطربة، فكل عنصر أو مشهد يصفه يحمل دلالات عميقة، تكتسي موقفه إزاء الحياة، وموقعه فيها، لعبت الإشاريات منها الشخصية خاصة دورا كبيرا في تحديد الذاتية التي حاول إخفاءها بطرق عديدة مختلفة.

من خلال ما سبق يتضح أن المتكلم يتخذ موقفا إزاء ما يقول، كما يتخذه إزاء وضعيته في الزمان والمكان، وذلك من خلال الأحكام التي تتحدد في مواضع متعددة تبعا لتموقع المتكلم والمخاطب في خطابه وما يؤديه من أفعال كلامية، فكلما اعتمد المتكلم اللغة للتأثير على المخاطب وبأي شكل من الأشكال استدعى الأمر أقوالا، وبالتالي يستدعي ذلك أحكاما، فالأشياء كما سمّاها أستن تصنع بالكلمات انطلاقا من أفعال إنجازية أو أدائية وفعل الكلام هو: «الوحدة الصغرى التي بفضلها تتحقق اللغة فعلا بعينه يهدف إلى تغير حال المتخاطبين والمتلقط المشارك لا يستطيع تأويل هذا الفعل إلا إذا اعترف بالطابع القصدي لفعل المتلفظ»[1] وعليه فهو يتعدى

Maingueneau, Les tèrmes clés de l’analyse du discours,p.10 -1

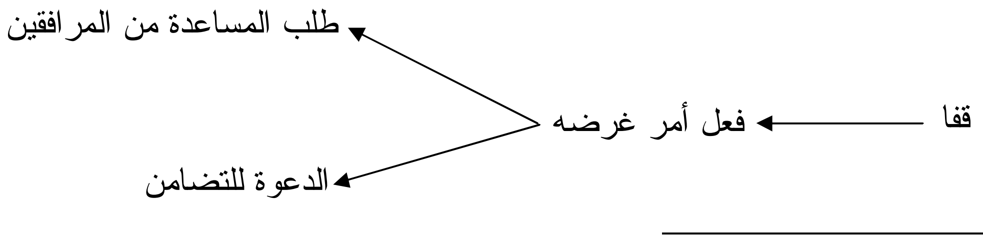
كونه أصغر وحدة تحقق اللغة من خلالها فعلا معينا إلى كونه أصغر وحدة مشكلة للذاتية في الخطاب وذلك عن طريق ربطه بالمبهمات من ضمائر وظروف الزمان والمكان وكذلك الأحكام ذات القيم الوصفية والتقييمية التقديرية.

ينبثق من الفعل الكلامي الذي هو جزء من الكلام ضمن التعامل الاجتماعي قوتان «قوة بلاغية، وهي الوظيفة الكامنة في الفعل الكلامي، تتحدد بفحص الفعل ذاته حيث علاقتها بالمعتقدات السائدة في اللحظة ذاتها (...) والقوة الثانية هي القوة التأثيرية الفعلية خاصة بآثار الفعل الكلامي ونتائجه سواء كانت مقصودة أم لا، فالقوة التأثيرية لها قد تكون إسعاد المتلقي وقد لا تكون»[1].

كل ملفوظ يحتوي علامات دالة على موقف المتكلم إزاء ما يقول، وهذا الموقف يميزه التأكيد أو الاحتمال، كما يميزه التقدير أو التقرير والتصريح.

وفعل الكلام كذلك يخضع لمؤسسة الخطاب ومنظومة قوانينه، مما جعلنا نحكم على المعلقة على أنها فعل كلامي، انطلاقا من حضور الذاتية وجميع عناصرها التي تستوجب حضور المتكلم والمخاطب وبالخصوص الخطاب وموقف المتكلم إزاء هذا الخطاب وكذلك موقعه إزاء هذا الخطاب، ويضم الفعل الكلامي في المعلقة أفعال كلامية جزئية تتجسد في جنس الخطاب، وهي في هذه المعلقة مختلفة الأغراض التي نظمت فيها، والتي سبق الإشارة إليها في تقسيم المعلقة وظروف نظمها، وما يهمنا في هذا الموضع هو أفعال الكلام المشكلة للذاتية انطلاقا من الأحكام التي يطلقها الشاعر على المواضيع التي يشير إليها، وهذه الأفعال الكلامية تصنف إلى خبر وإنشاء بنوعيه وهذه الأصناف غالبا ما تتوافق مع التقسيم الذي أورده كل من أوستن وسيرل وطوّره بعد ذلك بول غرايس ولابد للإشارة إلى أن مفهوم الفعل الكلامي يخضع لمفهوم السياق، كل تحكمه شروط وقوانين تحدد نجاحه من فشله.

وعليه فإن أفعال الكلام المكوّنة للذاتية في المعلقة يمكن تفصيلها كما يلي:



1- ذهبية حمو الحاج، نظرية التلفظ وتداولية الخطاب، ص 126.

- لا تهتلك ← نهي غرضه
  - وعدم الجزع الأمر بالتجمل بالصبر
  - الشفقة على حالته

- ويوم عقرت للعذارى... فيا عجبا ← تعجب غرضه
  - تفضيله ليوم دارة جلجل
  - فوزه برؤية حبيبته
  - طلب البقاء وعدم الابتعاد

- سيري وأرخي ← أمر غرضه
  - دعوته للناس ليشهدوا بإعجابه
  - وصف حالته مع المحبوبة

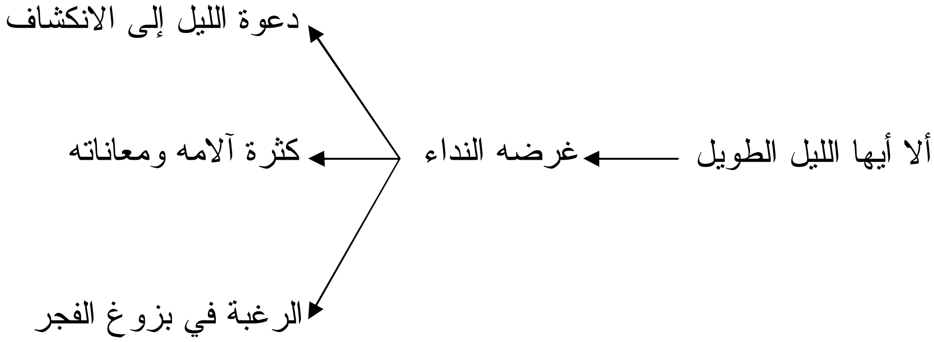
- إن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي ← أمر غرضه
  - التقليل من الدّلال
  - الدعوة إلى التجمل في الهجران

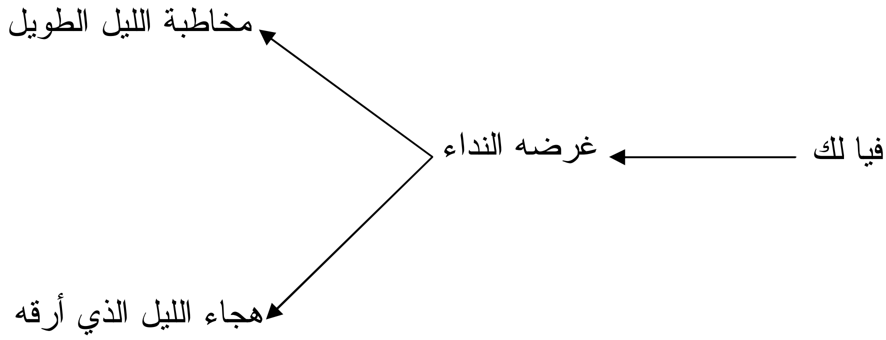
سلي ثيابي ← أمر غرضه ← تعبه من دلالها عليه / تحديه المحبوبة

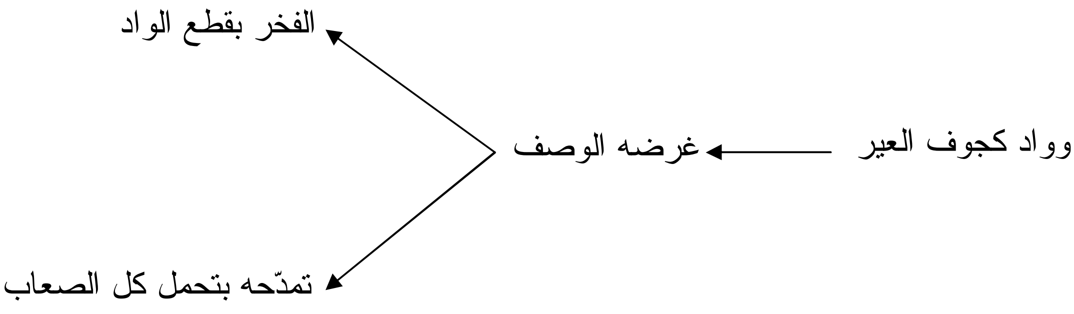
بيضة خدر ← وصف ← مدح المحبوبة / انتفاعه باللهو بها

فقالت يمين الله ← من الأمريات غرضه القسم ← عدم ثقة المحبوبة به / كثرة زياراته لها / دعوة المحبوبة عن كف الزيارة

مفهفهة بيضاء ← فعل تقريري غرضه وصف ← مدح الحبيبة / ذكر محاسنها الخارجية


ألا أيها الليل الطويل
غرضه النداء
دعوة الليل إلى الانكشاف
كثرة آلامه ومعاناته
الرغبة في بزوغ الفجر


فيا لك
غرضه النداء
مخاطبة الليل الطويل
هجاء الليل الذي أرقه


وواد كجوف العير
غرضه الوصف
الفخر بقطع الواد
تمدّحه بتحمل كل الصعاب

فقلت له لما عوى إن شأننا ← التأكيد غرضه

- الفخر بملاقاة الذئب
- تحسره على عدم الظفر بكل ما يطلبه

مكر مفر مدبر ... كجلمود صخر ← وصف غرضه

- مدحه لفرسه
- فخره بامتلاكه له

أصاح ترى برقا ← غرضه نداء

- تصوير مظاهر الطبيعة
- وصف لمعان البرق

كأن مكاكي الجواء غدبة ← وصف غرضه

- وصف المطر
- مدح الغيث لأنه رمز الغيث والنماء

وتجدر الإشارة إلى أن أفعال الكلام المرتبطة بالأحكام التي تشير إلى موقف الشاعر إزاء خطابه، وإزاء الموضوع الذي وصفه، سواء في وصف الطلل، أو التغزل بالحبيبة وصولا إلى وصف جميع الحيوانات التي التقى بها أو رافقته في رحلته إلى الصيد، وصولا إلى وصف مظاهر الطبيعة من لمعان البرق والسحاب ونزول الغيث إلى السيول الجارفة وتفاؤله بهذا المطر الذي يمثل رمز الخصب والنماء، والتخلص من القحط. وأفعال الكلام لا يتم تحديدها إلا بالرجوع إلى خصوصية اللغة العربية مما يجعلها تختلف ولو قليلا عن تلك الأصناف والأقسام التي حددها أو أسس لها التداوليون، ثم إن طبيعة السياق وظروف نظم المعلقة جعلت أفعال الكلام في هذه المعلقة إما تقريرية والتي تصنف ضمن الأسلوب الخبري وهي الطاغية على معظم أبيات المعلقة، وتكون أحيانا أمرية، نداء، قسم على قلتها، والملاحظ على الأفعال أنها جاءت تقريبا مباشرة، حتى وإن تعددت معانيها ومقاصد الشاعر إلا أن غرضها الضمني يبقى الغزل لطبيعة سياق قول الشاعر للمعلقة، فكان الشاعر في جل أبيات القصيدة يوجه كلامه إلى متلق واحد وهو المحبوبة، وحتى في إطلاقه للأحكام الوصفية، فهو كان يخاطب جميع المظاهر التي يقع عليها بصره، لتكون المعلقة سرد لتجربته الذاتية ولشخصيته التي تم تصويرها بشكل دقيق، وقد كان للسياق دور كبير في الكشف عن الذاتية.

خاتمة

لقد حاولنا في هذا البحث مقاربة الشعر الجاهلي تداوليا استنادا إلى أحد المرتكزات الأساسية للتحليل التداولي للخطاب المتمثلة في الذاتية، ممثلا في معلقة امرئ القيس ونظرا لخصوصية المعلقة، كونها أجود ما قيل من الشعر في العصر الجاهلي، وباعتبار ظروف نظمها حيث قال الشاعر معلقته بعد حادثة يوم "دارة جلجل" الذي اعتبره من أفضل الأيام وأسعدها التي قضاها في حياته بعد فوزه برؤية حبيبته "عنيزة "، وهذا ما جعل الشاعر يقدم نفسه على أنه الفاعل في الخطاب، وبالتالي استعماله لعدّة مؤشّرات تشير إلى ذاتيته التي نجدها في معظم أقسام المعلقة.

وباعتبار مفهوم الذاتية انبثق من الإهتمام بالخطاب اليومي الحي، لذلك رأينا أن هذا الخطاب سيكون له أثر بالغ في اغناء بعض جوانب الخطاب الأدبي الشعري، في فترة كان الشعر الجاهلي يعبر بعفوية مباشرة عن البيئة الجاهلية وعن شخصية وحياة الشاعر، وبالتالي يتطابق الشعر مع الخطاب اليومي العادي. وكان اهتمامنا بالشعر الجاهلي ممثلا في معلقة امرئ القيس محاولة منا الخروج عن الدراسات التي اهتمت بدراسة الشعر الجاهلي دراسة فنية أدبية جمالية في مختلف فنونه وقراءة الحياة الاجتماعية، والأخلاقية والدينية، العادات والمعتقدات، المثل وأنماط الحياة الذي ترجمها وسجلها على صفحة الزمن على مر العصور الشعر الجاهلي. وإنما حاولنا دراسة هذا الشعر من المنظور التداولي للكشف عن حقيقة الخطاب في تلك الحقبة، وباعتبار أن هذا الشعر كذلك وثيقة الصلة بحياة العرب، فإن مفهوم الذاتية يثير الكثير من التساؤلات ويلم بجميع القضايا التي تمكن من الولوج إلى عالم الخطاب، وبالتالي فقد أصبح لها أهمية قصوى لأي مقاربة تأويلية لمعلقة امرئ القيس.

لقد ارتكزت الدراسات السابقة التي اتخذت المعلقة كموضوع لها، على أساس أنها أشهر المعلقات الجاهلية، وأكملها دربة فنية، وقد سارت على نهجها معظم قصائد العصر الجاهلي كما ارتكزت على دراسة البكاء على الأطلال ومناجاة الأصحاب وذكر الخواطر النفسية والوجدانية التي تطربها نفس الشاعر، كما سلطت الضوء على شعر امرئ القيس وأثره في الشعر القديم، بمعنى الدراسات السابقة اهتمت بالجانب الأدبي في تحليل المدونة. لذا أردنا تحليل وقراءة المعلقة

من منظور تداولي علمي بالإرتكاز على قضية الذاتية وتتبع الآثار اللّسانية المادية التي يتركها الشاعر في خطابه والتي تشير إلى شخصيته وهويته باعتباره مالك اللّغة أو الخطاب.

وعلى هذا الأساس أفضت دراستنا لمعلقة امرئ القيس إلى جملة من النتائج منها ما يتعلق بالمنهج ومنها ما يتعلق بكيفية استغلال هذا المنهج في قراءة تراثنا الأدبي، على نحو أقرب إلى العلمية، ونتمنى أن نكون قد وفقنا في اثارة الشعر الجاهلي ولو قليلا. ويمكن أن نصوغ جملة النتائج المتوصل اليها في النقاط التالية :

1- يتضح استعمال الشاعر للذاتية في المعلقة من خلال استعماله لجملة من الآليات والآثار التي تثبت تعبيره عن شخصيته وذاته، كما تبين امتلاكه للّغة من خلال استعماله للإشاريات بمختلف أنواعها والتي منحت هذا الخطاب امكانية التعبير عن مقاصد الشاعر المختلفة، كما ساعدت هذه الآليات على إبراز حياة الشاعر ووجدانيته ونفسيته، وتعلقه بقبيلته من خلال وقوفه على الأطلال وتعلقه بأحبابه من خلال مناجاتهم، وكذا تعلقه بحبيبته حيث خصص قسم كبير من المعلقة ليعبر عن مغامراته العاطفية معها، كما بينت الإشاريات أيضا تأثر الشاعر بكل ما تراه عيناه، من مظاهر الطبيعة من ليل وبرق، سحب وأمطار، السيول الجارفة، كذلك من خلال وصفه للحيوانات التي يلاقيها في رحلاته من سرب الطيور، الفرس، البقر الوحشي، الذئب وغيرها فكل هذه المظاهر تبرز حياة الشاعر التي عاشها في لهو وترف وترحال كما تبرز نفسيته التي تعبت من شدة فراقه لأصحابه، فمن خلال استقرائنا لاستعمالات الإشاريات في المعلقة توضح أبعاد علاقة الشاعر بمخاطبيه، وإعطائها أهمية كبيرة من خلال محاولته الحفاظ عليهم.

2- استعمال الشاعر لضمائر الحضور بشكل كبير يفوق استعمال ضمائر الغياب، فاستعماله ضمائر المتكلم المفرد متصلا ساعده على التعبير عن شخصيته وعن ذاتيته من خلال حديثه عن وقوفه على الأطلال والبكاء عليها، ورؤيته للمنازل المهجورة، ويتذكر الأيام واللّحظات التي كان يعيشها عندما كانت هذه الديار والمنازل آهلة عامرة بسكانها، وكيف أصبحت خالية من كل أنيس وصديق، فساعده ضمير المتكلم المفرد على سرد مغامراته وذكرياته في تلك المنازل، كما نجد هذا الضمير يطغى على الجزء الذي تغزّل فيه بحبيبته "عنيزة "، عندما راح يسرد جميع اللّحظات الأيام على التي عاشها معها، كما نجده يسرد جميع الأفعال التي كان يقوم بها للوصول اليها، وكيف

كان يتجاوز الأحراش للوصول إليها، كما منح استعمال هذا الضمير امكانية التعبير عن همومه عندما كان يحاكي الليل، ويحاكي جميع المظاهر الطبيعية، كما نجد استعماله لضمير الجمع المتصل (نا) ، يدل على غرض تداولي يتمثل في مبدأ التعاون والتضامن من حيث دعوته الأصدقاء للتضامن معه، كذلك استعمل هذا الضمير حين يسرد مغامراته مع أحبابه في رحلة الصيد باعتبارهم جزء لا يتجزء منه، كما نجده حريصا على مشاركة الآخر في خطابه ويظهر ذلك من خلال استعماله لضمير المخاطب المفرد والجمع وذلك لغرض توصيل معاناته وأحزانه وآلامه التي يحس بها، ودفعه إلى الإحساس به والرأفة بحاله، كما حاول تغيب الذوات التي لا تهمه في حياته وذلك من خلال استعماله لضمير الغائب المتصل وهذا ما أضفى عليهم بعض الغموض والإبهام، والملاحظ على الضمائر المستعملة في المعلقة والمحيلة إلى الذاتية أن جلّها جاءت متصلة، فلم يستعمل الشاعر الضمير المتصل، وهذا نظرا لغرض القصيدة التي جاءت لسرد أحداث حياته ومغامراته العاطفية وخوفه من الوحدة من الزمن الحاضر.

3- عبرت الإشاريات الزمنية عن الزمن الماضي والزمن الحاضر، فالزمن الماضي عنده يمثل زمن الفرح زمن اللّهو والسعادة زمن المنازل العامرة، أما الزمن الحاضر فهو الزمن المخيف البطئ والذي أثر سلبا على حياة الشاعر لأنه يفقده الأمل في الحياة بعدما وجد نفسه وحيدا، بعد أن تركه كل أحبابه فجاء الزمن بالنسبة للشاعر غامض ومصيره فيه غير مضمون، أما الإشاريات المكانية فعبرت بشكل كبير عن الأماكن التي عاش فيها الشاعر، وكان لها تأثير كبير على نفسيته وعلى شعره، فهي تمثل الأماكن التي عاش فيها كل مغامرات حياته وجميع أوقاته، وقد ساعدته الإشاريات الزمنية والمكانية للتعبير عن شخصيته وذاتيته بشكل كبير.

4- ترتبط الذاتيات بمدى تأثر الشاعر بالمواقف التي تحدث في حياته، وبمدى تأثره بما يعيشه ويصادفه في المكان والزمان الذي يعيش فيه، فجاءت الذاتيات لتعبر عن الأحكام التي أطلقها الشاعر عن جميع المظاهر التي تأثر بها، فجاءت الأحكام وصفية نعتية أكثر منها قيمية، فالشاعر وصف أكثر من قيّم، وهذا راجع لطبيعة المعلقة ولطبيعة الشاعر الجاهلي الذي يصوّر بطريقة فنية مميزة بيئة العصر الجاهلي وكل ما تره عيناه من نساء وحيوان وجماد. فالأحكام الوصفية كانت تشير في أغلبها إلى وصف الحبيبة بكل الصفات الحميدة والجميلة نظرا لتأثره بها وتعلقه بها، كما وصف الليل بطوله وسواده مما زاده في معاناته وآلامه، كما خصص جزء لوصف

الطبيعة ومظاهرها المتقلبة. وكان للبلاغة دور كبير في اطلاق الشاعر لهذه الأحكام بشكل فني بارع وهذا ما جعل لهذه الأوصاف أثر مهم ووقع مؤثر في نفس السامع والقارئ لإعتماده على التشبيه والإستعارة والمجاز، وهذا ما يوضح التمثيل الحسي للتجربة الشعرية بمختلف الإحساسات والعواطف وبالتالي التعبير عن الذاتية في صورة لسانية بلاغية مميزة.

5- إن اشارتنا إلى أفعال الكلام في الذاتية لم يكن من باب تحليلها وتصنيفها حسب المفاهيم الأساسية لهذه النظرية، وإنما جاءت دراستها من ناحية ارتباطها بالأحكام التي أطلقها الشاعر، فاللتأثير في مخاطبه وجب استعمال اللّغة التي تمت بواسطة الأشكال ومجموعة من الأقوال والأفعال، وقد تعددت أفعال الكلام من إنشائية وتقريرية، لكن يطغى عليها الوصف الذي يحوي في طياته موقف الشاعر من الأشياء التي يصفها ويحكم عليها، بالتالي فالأحكام والأقوال تحققت بفعل رغبة الشاعر وعواطفه. ونستطيع القول أن الذاتية ربطت ربطا مباشرا بالمتكلم، ويتمثل دورها في اللّغة أثناء عملية التلفظ وبعلاقة المتكلم بسياق الخطاب الذي لعب دورا بارزا في العملية التأويلية، وعلاقته بالسياق الزماني والمكاني، وكذا علاقته بخطابه من خلال عنصر الذاتيات المتمثلة في عنصر الأحكام.

قائمة المصادر المراجع:

أ- باللغة العربية:

1- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، دار الجيل ط5، بيروت 1981.

2- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج5، تحقيق بركات يوسف عبود، ط1، دار الأرقم، بيروت، لبنان 1999.

3- ابن قتيبة أبو محمد بن مسلم الدينوري، الشعر والشعراء، ج1، دار صادر، ط1، بيروت، لبنان 1904.

4- ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، ج3، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان 2001.

5- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، مج9، دار صادر، ط1، بيروت، لبنان 2004.

6- أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، دار المعارف، ط5، القاهرة. (د.ت).

7- أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 2000.

8- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها، ترجمة محمد يحياتن، الجزائر 1992.

9- أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط2، الدار البيضاء 2010.

10- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء، المغرب 1985.

11- أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر والتوزيع، ط1، الرباط، المغرب 2001.

12- أحمد المتوكل، من البنية الحملية إلى البنية المكونية، الوظيفة المفعول، دار الثقافة، الدار البيضاء 1987.
13- أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، ط4، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر 2008.
14- أحمد محمد عبد الراضي، القضايا الصرفية والنحوية في حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد، دراسة تحليلية في ضوء دلالة النص، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، بور سعيد، القاهرة 2007.
15- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، ط5، القاهرة 1998.
16- أمرؤ القيس بن حجر، الديوان، عناية وشرح عبد الرحمن المصطفاوي، دار المعرفة، ط2، بيروت، لبنان 2004.
17- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، الأردن 2008.
18- جاك موشلر وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين، دار سيناترا، تونس 2010.
19- جورج يول، التداولية، ترجمة قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، لبنان 2010.
20- جون براون وجورج يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي، منير التركي، (د.ط)، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية 1997.
21- حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات، علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، ط1، إربد، الأردن 2011.
22- حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، مصر 1979.
23- حسن عباس، النحو الوافي، ج1، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة 2004.
24- حسين الحاج حسين، أدب العرب في عصر الجاهلية، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، بيروت 1997.

25- خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط2، العلمة، الجزائر 2012.
26- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت).
27- سامي يوسف أبو زيد ومنذر ذيب كفافي، الأدب الجاهلي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، عمان 2011.
28- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، ط2، الدار البيضاء، المغرب 1985.
29- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط14، القاهرة 2003.
30- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، (د.ط)، الكويت 1992.
31- عبد الرحمن عبد الحميد علي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، دار الكتاب للحديث (د ط)، القاهرة 2008.
32- عبد الرحمن عفيف، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان 1984.
33- عبد الله الحسن بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، دار الجيل، ط1، بيروت 2005.
34- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، لبنان 2004.
35- عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص "المفهوم العلاقة السلطة"، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان 2008.
36- علي أحمد الخطيب، الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، مكتبة الدار العربية للكتاب ط1، القاهرة 2003.
37- علي أحمد الخطيب، فن الوصف في الشعر الجاهلي، الدار اللبنانية، ط1، القاهرة 2004.

38- فؤاد أفرام البستاني، الشعر الجاهلي نشأته فنونه صفاته، المكتبة الكاثوليكية، (د.ط)، بيروت.
39- فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق سعيد حسين بحيري، ط1، القاهرة، جمهورية مصر العربية 2011.
40- فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب 1986.
41- فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد، العراق 1988.
42- كريم الوائلي، الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية، دار العالمية، القاهرة.
43- كريم زكي حسام الدين، اللغة والثقافة، دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، القاهرة 2001.
44- محمد مطرجي، النحو وتطبيقاته، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان 2000.
45- محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، (د.ط)، مصر 2002.
46- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت 2005.
47- مصطفى السيوفي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ط1، القاهرة 2008.
48- ناصر حنيفي، مختار لزعر، اللسانيات منطلقاتها النظرية وتعميقاتها المنهجية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2009.
49- ناصر عقيل، أحمد الزغلول، اسما المكان والزمان في القرآن الكريم، دراسة صرفية دلالية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، إربد، الأردن 2006.
50- نعمان بوقرة، اللسانيات إتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، ط1، 2009.

51- يوسف عطا الطريفي، العصر الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن 2006.

ب- باللغة الأجنبية

1- Catherine Kerbrat -Orecchioni, L'énonciation de la subjectivité dans le langages, Armand Collin, Paris1999.
2- Catherine Kerbrat- Orecchioni, L'implicite, Armand Collin, Paris 1986.
3- Catherine Kerbrat-Orecchioni, Les interactions verbales, Tom1, Armand Collin, Paris 1990.
4- Dominique Maingueneau, les termes clés de l'analyse de discours, Seuil, Paris 1996.
5- Emile Beveniste, Problèmes de linguistique générale, Tome1, Gallimard, Cérés, Edition, Tunis 1995.
6- George Elias Sarfati, Précis d pragmatique, édition Nalhan, Paris 2002.
7- John Searle, Sens et expression, études de chéorie des actes de langage, traduction et préface par Joelle Proust, les éditions de minuit, paris 1982.
8- Oswald Ducrot et Jean-Marie Schaffer, Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences de language, Seuil, Paris 1995.
9- Patrick Charaudeau & Dominque Mainguenean, Dictionnaire de L'analyse de discours, Editions du seuil, Paris 2002.

ج- المجلات:

- محمد سعيد حسين وحسن إسماعيل، أزمة الذات الشعرية، معلقات أمرؤ القيس وطرفة بن العبد وعنترة نموذجا، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد 19، العدد 7، 2013.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول : تحد يد المفاهيم

الفصل الثاني: الذاتية في معلقة امرئ القيس